٢٤٩

HARLEQUIN

روايات احلام

أعطني قيدي

سارة كريفن

www.elromancia.com
مرمورية

أعطني قيدي

كانت أبي فتاة عادية عملية، لا تؤمن بالهوى، أو بالحب من النظرة الأولى... ولو قال لها أحدهم إن هذا يمكن أن يحدث لها، لاعتبرت الأمر مزاحاً.

ولكن عندما يصبح مصيرها معلقاً بقبضة فاسكو دو كارافالو لا يعود الأمر مضحكاً أبداً.

قال لها: «تزوجيني!»

- لماذا؟

- لا أستطيع العودة إلى البرازيل بدون زوجة!

إنها مستعدة لأن تلحق بفاسكو حافية القدمين، إذا ما طلب منها ذلك. ولكنه لن يطلب، ولو عرف مقدار حبها له لتركها دون تردد. فكيف تستطيع السفر معه والعيش تحت سقف بيته، دون أن تفضح مشاعرها الحقيقية؟

حاولت أن تواسي نفسها: لن يكون هذا لوقت طويل... ستة أشهر ليست العمر كله، بعد هذه المدة ستكون حرة.

لكنها كانت تعي أنها لن تكون حرة أبداً!!

لبنان: ٢٥٠٠ ل.ل.
سوريا: ٧٥ ل.س.
الأردن: ١,٥ دينار
الكويت: ٧٥٠ فلس
الإمارات: ١٠ دراهم
قطر: ١٠ ريال
البحرين: ١ دينار
السعودية: ١٠ ريال
مصر: ٦ جنيه
المغرب: ١٥ درهم
تونس: ٢ دينار
عمان: ١ ريال

ISBN 9953-15-082-6

روايات أحلام

مجلة قصصية أسبوعية

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م

المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية

محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

بترخيص خطي من *Harlequin Enterprises II B.V*

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال

تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة *Harlequin Enterprises II B.V.*

كل العلامات التجارية استعملت

بترخيص من شركة *Harlequin Enterprises II B.V.*

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:

Witch's Harvest

First published in Great Britain 1987

Harlequin Mills & Boon Limited

© Sara Craven 1987

Translation © Dar El-Farasha - 2002

ISBN 9953 - 15 - 082 - 6

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -

ص.ب: ٨٢٥٤/١١ هاتف/فاكس: ٩٦١-١-٤٥٠٩٥٠- بيروت - لبنان

Email: dfarasha@cyberia.net.lb

أعزائي القراء

لأننا عوّدناكم دائماً على أجمل الروايات العاطفية... ولأننا نعرف أن قراءنا لا يرضون بأقل من الأفضل... ولأن هدفنا دوماً المحافظة على واحة حب تخفّف من وطأة الآلام والهموم في عالمنا... لهذا، اخترنا أن تكون هديتنا إلى قرائنا في بداية هذا القرن هي انضمامنا إلى أسرة هارلكوين Harlequin العالمية.

لماذا هذا الاختيار؟

لأن شركة Harlequin هي رائدة الروايات الرومانسية في العالم أجمع، وهي تتعاون مع أفضل الروائيات في هذا المجال، وتصدر شهرياً أكثر من ٧٠ عنواناً جديداً.

ما هي نتيجة هذا الاختيار؟

ستظل روايات أحلام على سابق عهدها من حيث اختيار القصة الشيقة والأسلوب الرفيع واللغة السليمة... والتغيير الذي ستلاحظونه هو في زيادة عدد الروايات شهرياً، وتنوع الموضوعات لتناسب جميع الأذواق، وسيكون لمشاركتكم باختيار المواضيع المفضلة لديكم وبأسماء الروائيات اللاتي أحببتموهن، الدور الأساسي.

بكل إخلاص

أسرة أحلام

www.elromancia.com

ساره كريڤن

بدأت ساره كريڤن بالكتابة لشركة «ميلز آند بونز» سنة ١٩٧٥، وقد باعت منذ ذلك الحين ما يناهز السبعة عشرة مليون نسخة من كتبها في أنحاء العالم. وهي تهوى إلى جانب الكتابة، مشاهدة الأفلام والاستماع إلى الموسيقى والطهو، كذلك تناول الوجبات اللذيذة في مطاعم فخمة. تعيش ساره كريڤن الآن في مدينة «سومرسيت» وهي متمرّسة في متابعة برامج المسابقات التلفزيونية والمشاركة فيها.

١ ـ الوصيفة

أقفلت أبواب المصعد، وبدأ القفص الفولاذي رحلته صعوداً بتمايل خفيف، انعكس قلقاً على معدة آبيغايل ويستمدر.

فكرت بيأس بما ستفعله. هل ستبقى مرسالاً مكرهاً بين ابنة عمها وخطيبها؟ لماذا لم ترفض.. لماذا لم تقف ولو لمرة واحدة، في وجه ديلا وطلباتها المثيرة للسخط؟ فالرسالة التي في حقيبتها، تحمل نوعاً من الإنذار النهائي. وهذا ما لا تريد أن تتورط فيه، خاصة حين.. وتوقّف دماغها عن التفكير.

وللمرة المليون، نظرت في حقيبتها لتتأكد من أن الرسالة في مكانها، ولم تفقدها، ثم التفتت إلى ساعتها، لتتأكد من أن التوقيت دقيق.. فقد أصرت ديلا على هذه النقطة كثيراً.

كانت قد أصرّت بحدة، على أن توصلها قبل السادسة تماماً.. لئلا تسترسلي في أحلامك يا آبي، وتنسي، إذ لا يمكن أن يعتمد عليك.

لكن آبي لم تكن ترغب في أن يعتمد عليها، خاصة إذا عنى هذا إيصال رسالة إلى ڤاسكو داكاراڤالو، لن يرغب في استلامها.

في الماضي، كانوا يعدمون حاملي الأخبار السيئة.. وكشرت آبي لصورتها في مرآة المصعد.. لكنها لا تعتقد أن ڤاسكو سيصل إلى هذا الحد، مع أنها تشك أن مزاجه حاد. إنما لن يسرّ حين يعرف أن ديلا ناقشت الخلاف بينهما مع طرف ثالث.

يمكنها أن تدس الرسالة تحت الباب وتختفي.. وتنهدت. لا، يجب أن تعطيه الرسالة شخصياً، فقد أصّرت ديلا على هذا.

وأضافت ديلا: «إذا لم يكن موجوداً، اتصلي بي على الفور.. على هذا الرقم».

وأعطت آبي قصاصة ورق مطوية.

ودهشت آبي قليلاً، فقد أمضت معظم حياتها، منذ موت والديها، مع ابنة عمها في منزلها الضخم في «سانت جون وود».. ومن المفترض أن تتذكر رقم الهاتف مع أنها تعيش الآن في غرفة خاصة.. لكن، حين قرأت الرقم فيما بعد، أزعجها أن ترى أن ديلا كتبت رقم هاتف فندق باريسي.

ولم تكن تدري لماذا تشعر بالتوتر، فديلا وأمها، غالباً ما تسافران إلى باريس لشراء «جهاز عرس» ديلا. والآن، بعد أن عرفت ديلا أن حياتها الزوجية لن تكون في مكان فخم في «ريو دو جانيرو»، بل في مزرعة «كاكاو» منعزلة وسط غابات الأمازون، لا بد أن تعيد النظر بما تشتريه من ثياب.. لكن، يبدو غريباً أن تسافر لتتسوق والأمور بينها وبين ڤاسكو غير مستقرة.

توقف المصعد، وخرجت آبي على مضض إلى الممر، وكعبي حذائها يغوصان في السجاد السميك. هذه هي المرة الأولى التي تزور فيها المجمّع السكني حيث يقيم ڤاسكو. كان فخماً كما تصورته تماماً، ففهمت لماذا صدّقت ديلا أنّ هذه هي خلفية ڤاسكو الاجتماعية.. وليس زاوية منعزلة من غابة أمطار برازيلية.. وفهمت كذلك، لماذا ظنّت ابنة عمها أن مزرعة الكاكاو، مجرد تسلية، أو نزوة رجل ثري، وأنه حين سيتزوج سيحتلّ مكانته اللائقة في شركة عائلته الثرية، في ريو.

ولم تكن آبي واثقة تماماً من ذلك.. فهي لا تعتقد أن مظهر ڤاسكو الشديد السمرة، والأنيق، يخفي أي ضعف.. فخطوط فمه الصارمة، وشكل ذقنه العنيدة تتناقض مع قناعة ديلا أن بإمكانها التلاعب به.

وقد صدمت ديلا وغضبت حين أوضح لها بصراحة أن مزرعة الكاكاو هي كل حياته، وأنه يتوقّع منها كزوجته أن تشاركه اهتمامه. وكاد الموقف يكون مضحكاً، إلاّ أن آبي لم تشعر برغبة في الضحك.

وصلت إلى باب الشقة وتوقفت لتبتلع ريقها بتوتر. كان على الحائط المجاور مرآة كبيرة ذات إطار ذهبي، فتأملت صورتها، ومررت أصابعها في شعرها البني الناعم، وهي تراجع بصمت ما ستقوله، إذا فتح الباب.. «أوه.. مرحباً. كنت مارة من هنا.. وطلبت مني ديلا..».

لا.. هذا لن ينفع.. وفكرت بغضب أنها تميل إلى التصرف بشكل طفولي، فيما تبدو بيضاء كالشبح، وعيناها ضعف حجمهما الطبيعي.

كما فكرت في أن ڤاسكو داكارفلو لم يتأملها يوماً، لذلك قد يظن أن شحوبها أمر عادي جداً.

تمنت من كل قلبها، لو تشاركه عدم اكتراثه، لو أن الإحساس الوحيد الذي يثيره فيها هو مجرد اهتمام سطحي ومهذب نحو خطيب ابنة عمها.. لكن الأمور لم تكن على هذا النحو.

كانت فتاة عادية وعملية، لا تؤمن بالهوى، أو بالحب من النظرة الأولى.. ولو قال لها أحدهم إنّ هذا يمكن أن يحدث، لاعتبرت الأمر مزاحاً.

لكن الأمر لم يكن مضحكاً.. وأحست بالألم.. ليس مضحكاً أبداً.

في إحدى الأمسيات، دخلت غرفة الجلوس في بيت عمها لتجده واقفاً مع ديلا، أمام المدفئة.. ولم تعد الأمور إلى ما كانت عليه منذ تلك اللحظة، ولن تعود أبداً.

وثبت لها أن هذا هو الدافع لتغادر منزل عمها.. وكانت قد قامت ببعض المحاولات غير الناجحة فيما مضى.. لكن زوجة عمها اتهمتها بنكران الجميل.. إنما هذه المرة، التزمت بموقفها.. إذ يستحيل أن تستمر في العيش هناك، فترى ڤاسكو كل يوم، وتراقب ديلا وهي تتحضر

لتصبح زوجته. كانت تعتقد أن مشاعرها نحو ڤاسكو هي سرها الخاص، لكنها اخطأت في اعتقادها.

ولهذا، ها هي تتسكع قرب بابه، محاولة استجماع شجاعتها لتقرع الجرس.

كانت كلمات ديلا، والابتسامة الماكرة التي رافقتها لا تزال تلاحق آبي.

ـ إما أن تفعلي ما أقوله لك يا عزيزتي آبي، وتوصلي الرسالة شخصياً وفي الوقت المحدد، وإما سأخبر ڤاسكو عن الحب المثير للإشفاق الذي تشعرين به نحوه.

ـ هذا كلام سخيف.

اتسعت ابتسامة ديلا.

ـ أوه، لا ليس سخيفاً.. وكلانا يعرف هذا. أنت شفافة بشكل لا يصدق يا حبيبتي، ولو لم يكن ڤاسكو مسلوب اللب بي، للاحظ حبك الشغوف.

ولوّحت لها بالرسالة مضيفة: «صدقيني آبي.. سيسّرني أن أعلمه أنك تذوبين حباً به، وسيشكّل هذا موضوعاً نضحك عليه خلال أمسيات الشتاء الطويلة بعد زواجنا».

تفرّست في خطوط وجه آبي المشدود برضى صريح، وتابعت قائلة:

ـ سوف نتزوج. إنه مجنون بحبي، وما إن يدرك أنني جادة في مسألة غابة الأمازون الفاشلة هذه، حتى يأتي راكعاً.

وبدا على وجهها الجميل نظرة لعوبة: «على أي حال لن يرغب في تأخير زواجنا، مع أن الانتظار لم يكن فكرتي أصلاً.. بل فكرة إينا التي قدمتنا لبعضنا في حفل السفارة، وحذرتني من أنني إذا أردت الزواج، يجب أن أتصرف كفتاة طيبة، ونقية.. وأن أبقيه منتظراً، ولقد نجح هذا».

وضحكت، ثم أضافت:

ـ تسلّيت وأنا ألعب دور العذراء الصغيرة الحلوة، وأراقبه يعرق. وأعتقد، أنه لولا إحساسه اللعين بالشرف، لتركته يقنعني.. إنه وسيم كما تعرفين يا حبيبتي.

وتنهدت قبل أن تقول: «أراهن أنه سيكون مثيراً!».

وأجفلت آبي لوقاحة ما تسمع، وقالت بصوت منخفض: «ديل.. إذا كنت تحبينه...».

لمعت عينا ديلا: «أوه.. أحبه. لكنني لا أعتبر أن العالم سيفتقد للحب وإذا ظنّ ڤاسكو أنني سألحق به إلى الأمازون كزوجة صغيرة خاضعة، بإمكانه أن يفكر مرة أخرى.. عليه أن يختار إما تلك الهوة في جهنم، «ريوتشو نيغرو».. إما أنا. المسألة بسيطة جداً».

ارتجفت آبي وهي تتذكر، وأخرجت الرسالة من حقيبتها، تمسكها بحذر شديد وكأنها قنبلة موقوتة.. ثم دقت جرس الباب، آملة أن يكون في الخارج.

لكن دعواتها لم تكن مجابة، إذ انفتح الباب على الفور، ووقف ڤاسكو ينظر إليها بدهشة صريحة، وتجهم متزايد.

سأل: «آبيغايل؟ كنت أتوقع...».

فقاطعته آبي: «ديلا».

وابتسمت ابتسامة متوترة قبل أن تضيف: «أنا آسفة إذ خيّبت أملك».

فقال بأدب: «لم تخيّبي أملي.. من الطبيعي أن أكون مسروراً للقاءك مجدداً.. لقد مضت بضعة أسابيع كما أعتقد.. هل تودين الدخول؟».

قالت بسرعة: «في الواقع لا داعي ذلك. أنا هنا بالنيابة عن ديلا».

وناولته الرسالة!

ـ طلبت مني أن أعطيك هذه.

نظر إلى الرسالة، وازداد تجهمّ وجهه بشكل خطير.. لم تشاهده آبي هكذا من قبل، ففي لقائهما الأخير، كان في أوج فتنته.. وبدا لها رجلاً

مهيباً. وخطر لها أن ديلا مجنونة لو تصورت أنها قادرة على إجباره على شيء لم يختره.

قال باقتضاب: «أعتقد أنه من الأفضل أن تدخلي يا آبيغايل».

وأطبقت يده على ذراعها، بقبضة لا تقبل الرفض، وأدخلها الشقة.. ووجدت نفسها في غرفة جلوس كبيرة مريحة.. قال لها:

ـ اجلسي.

وأشار إلى كنبة كبيرة من الجلد. فقالت تحتج بضعف: «لا أستطيع البقاء حقاً، جئت فقط لأوصل هذا و..».

وكانت ابتسامته باردة.

ـ آه.. أجل.. «آبيغايل» تعني «الوصيفة» كما أعتقد. يجب ألاّ تسمحي لديلا بأن تسيّرك. على أي حال، حتى الرسول يستحق مكافأة، هل لي أن أقدم لك القهوة، أم تفضلين العصير؟

ـ لا شيء.. شكراً.. يجب أن أذهب..

ـ ألم تتلقي تعليمات بانتظار الرد؟

وأشار إلى الرسالة التي لا تزال متمسكة بها.

ـ يا إلهي! لا!

وضعت الرسالة على طاولة صغيرة وكأنها الجمر الساخن، وقالت تحاول تجاوزه نحو الباب: «أعتقد أنّ عليك أن تقرأها يا ڤاسكو. أرادت ديلا أن أوصلها على الفور، ولعل لذلك سبب».

ـ لا أشك في هذا.. فخلال الأسابيع المنصرمة، أدركت كيف تفكر.. هل تعرفين شروط رسالتها.. ربما؟

أنكرت آبي بسرعة: «لا، حقاً، لا».

تكلمت بدون اقتناع، وتصاعد احمرار خفيف إلى وجهها.

فقال ببرود: «هكذا إذن، فهمت».

ضربت قبضتها الصغيرة على كفها وقالت: «لا.. أنت لا تفهم..

أوه.. يا إلهي، هذا أمر محرج. يمكنني قتل ديلا بسببه! صدّقني، آخر ما أردته... هو أن أتورّط بأي طريقة في أي.. مشكلة بينكما».

قال ساخراً: «شكراً لأنك طمأنتني.. لكن أيّ مشكلة، هي من اختراع ديلا.. في عالمي، حين توافق المرأة على الزواج من رجل، توافق على مشاركته حياته، أينما كانت أو كيفما كانت. وابنة عمك، تعرف منزلي وعملي في «ريوتشو نيغرو»، ولم أخف عنها سراً».

ابتسمت ابتسامة سريعة من دون معنى وأجابت: «حسن جداً.. الأمر في الحقيقة ليس من شأني. والآن يجب أن تعذرني.. أنا.. لدي موعد، وأنت تريد أن تقرأ الرسالة بهدوء».

قال ڤاسكو بخشونة مفاجئة جعلتها تجفل: «الهدوء ليست الكلمة التي قد أختارها».

ولان وجهه لرؤيتها تنتفض، فأكمل: «تينو مويتاپينا» آبيغايل.. أنا آسف. لست الملامة على أي حال.. لكن، ما كان يجب أن تسمحي لديلا أن تستغلك هكذا».

هزت كتفيها بخفة: «حسن جداً.. لن يطول هذا. وأنا واثقة من أنكما ستسويان خلافاتكما ڤاسكو.. ليلة سعيدة».

ـ بواتاردى آبيغايل.

ظهرت ردة فعلها فور عودتها إلى الممر الآمن، وبعد إقفال الباب بينهما. راحت ساقاها ترتجفان فجأة حتى اضطرت إلى الاستناد إلى الجدار لتستعيد توازنها. وانفتح باب آخر، خرج منه زوجان مسنان، ونظرت المرأة إلى آبي نظرة دهشة باردة وهي تمر بها.

وفيما هي تنتظر وصول الباص، أدركت أنها المرة الأولى التي تكون فيها بمفردها مع ڤاسكو. وكان لقاءً متوتراً، لا يشبه الأحلام الطفولية التي تسترسل فيها في بعض الأحيان.

احتقرت نفسها لغبائها، وراحت تراجع تفاصيل مظهره.. وتوقفت

www.elromancia.com

طويلاً عند رموشه السوداء الطويلة التي تغطّي عينيه البراقتين السوداوين، وطريقة تصفيف شعره الذي يكشف عن جبين مميز.. والبشرة النحاسية التي تكشفها ياقة قميصه المفتوحة.. ويديه الرائعتين.

تنهدت مرتجفة، تقول لنفسها إنّ عليها أن تخجل.. فليس من الخطأ وحسب أن يحتلّ أفكارها هكذا، بل لا طائل من ذلك أيضاً.. إنه لديلا، وسوف يحلاّن خلافاتهما بشيء من التنازل المتبادل، ويتزوجان، وإذا كانت محظوظة، فلن تراهما مرة أخرى.

لا بدّ أنّه يعتبرها فضولية متطفلة.. وذكّرت نفسها بذلك ساخرة. لكن، من الأفضل أن يعتبرها مزعجة بدلاً من بلهاء متيّمة بحبه. ولو نفذت ديلا تهديدها يوماً، وقالت له إن ابنة عمها العانس، وقعت في حبه، فإن البرازيل بعيدة بما يكفي لئلا تعرف بهذا.

وأملت، أن تستيقظ يوماً لتجد نفسها وقد شفيت تماماً.

مع أن هذا الشفاء لن يكون على يد كيث الذي تواعدت معه الليلة. فهو لطيف، وأحد المدراء في الشركة التي تعمل فيها، وهما يتشاطران الاهتمام بالمسرح، لكن الأمر لا يتعدّى هذا.. على الأقل من جانبها.

وفكرت ساخرة في أن كيث لن يصبح يوماً عاشقاً مجنوناً.. فهو حذر جداً، ويدرك ما يريده في الحياة.. ولطالما لاحظت آبيغايل أنها تمر في اختبارات عدة على يده. لكن، حتى لو لم تقابل ڤاسكو، لبقيت مقتنعة بأن لا مستقبل لها مع كيث، أو مع أي شخص آخر.

لعلها في الأساس باردة.. وقد سمحت لمخيّلتها بأن تجمح حول ڤاسكو لأنه «منطقة محرّمة».. ولا يشكل تهديداً حقيقياً لها.

فكرت وهي تصعد إلى الباص وتجلس على المقعد، في أنها تفضل أن تصدق، بأن ڤاسكو سوف يتزوج ديلا ويختفي من حياتها. وسيأخذ معه، عن غير قصد، كل الحب والدفء والهوى، الذي حملته في قلبها، ليتركها تواجه المستقبل محرومة ومحطمة عاطفياً.

قال كيث مقطّباً: «لقد وجدت الممثل الثاني في المسرحية مخيباً للأمل، أعتقد أنه فشل في تجسيد شخصية المتطفل».

وافقت آبي، وهي تكتم تثاؤباً خفيفاً: «أجل».

لقد وجدت المسرحية كلها طويلة ومملة.. وحاولت جاهدة أن تركز على ما يحدث على المسرح، لكن تفكيرها ما انفك يعود إلى ڤاسكو والرسالة التي أوصلتها له، وردة فعله. إنه رجل يحب إملاء الشروط، لا الموافقة عليها.

خرجت آبي من المسرح بصداع خفيف، وأبدت ترداداً حين اقترح أن يكملا السهرة كالمعتاد.. لكنه بدا خائب الأمل حين ذكرت شيئاً حول النوم باكراً، فلانت.

قصدا الملهى الذي اعتادا ارتياده.. لكنه بدا مكتظاً جداً بحيث اضطرا إلى الوقوف.

وتحرّك الجمع، فتمكّنت آبي من إلقاء نظرة على الجهة الأخرى من الصالة. وفجأة، انحبست أنفاسها، وتشنّجت أصابعها حول كوب العصير وهي تحدق إلى طاولة في الزاوية.

هذا مستحيل! بدأت تترآى لها الأشياء.. لقد احتلّ ڤاسكو أفكارها بحيث راحت تتخيل أنه هناك، في الزاوية لوحده.

قاطعت كلمات كيث الساخطة أفكارها: «لا أعتقد أنك أصغيت إلى أيّ كلمة قلتها!».

واستدارت إليه معتذرة: «أنا آسفة.. ظننت أنني رأيت شخصاً أعرفه».

رفع كيث عنقه وقال: «أوه؟ لا يبدو مألوفاً لي».

ـ هذا طبيعي. اسمه ڤاسكو كارڤالو.. وهو خطيب ابنة عمي.

علّق كيث: «لاحظت أنه لا يبدو إنكليزياً».

ونظر إلى الزاوية نظرة مركزة، وأضاف: «ويبدو لي متجهماً وغاضباً

جداً».

أحسّت آبي بالارتياع: «أوه.. لا..! ليس هذا من عادته.. لا بد أن السبب هو تلك الرسالة اللعينة.. لا بد أن هناك خطب ما».

حاولت التحرّك عبر الجموع نحو طاولته، فمنعها كيث قائلاً: «حسن جداً.. مهما كان الأمر يا آبي، هذا ليس من شأننا.. فدعيه وشأنه».

قالت ببؤس: «لا أستطيع.. أشعر أنني ملامة جزئياً».

نظر إليها بازدراء: «لا تكوني سخيفة. أقترح أن تتصلي بخطيبته، وتطلبي منها أن تأتي إلى هنا لتصالحه».

بدأت آبي تتحرك إلى الأمام مجدداً وهي تقول: «إنها في باريس.. سألقي عليه التحيّة».

- لا أرى سبباً يدعوك إلى هذا.. اشربي كأس العصير وسنذهب إلى مكان آخر ونتركه لبؤسه، فمهما كانت مشكلته، لن يشكرك على دسّ أنفك فيها.. صدقيني.

تمتمت: «أنت لا تدري كم أنك على حق».

- انظري إليّ آبي.. ما هي بالضبط علاقتك بهذا الرجل؟ وما شأن الرسالة؟

نظرت إليه متوسلة: «ليتني أستطيع أن أفسّر لك. لكنني لا أستطيع.. كما لا أستطيع أن أرحل وأتركه وشأنه».

فأعلن بغرور: «حسن جداً.. أنا أستطيع. وإذا أصرّيت على التدخل يا آبي، فأنت حرّة. لن أفسد أمسية لطيفة بالتشاجر معه، كائناً من يكون، أنت لا تدركين عواقب ما تقدمين عليه».

نظرت إليه بنفاد صبر وأجابت: «إذن.. سوف أعرف.. ولا أطلب منك التدخل».

نظر إليها غاضباً، وفتح فمه، ثم أقفله، واستدار مبتعداً.. لكنها لم تشعر بالأسف.

وصلت إلى الطاولة وجلست على المقعد إلى جانب ڤاسكو، ثم قالت بلهفة: «ڤاسكو؟».

نظر إليها مطولاً، لكن بدا في نظرته شرود يفضح توتره.

قال، متلفظاً بكل كلمة، بحرص: «آه.. الوصيفة الصغيرة، كي أنكانتامنتو».

قالت وهي تعي أن صوتها يرتجف قليلاً: «هل ستغادر الآن؟».

- لا سنيوريتا، لا أعتقد هذا.

وابتسم لها ابتسامة كسول، أحست آبي أنها تخفي مشاعر مجنونة، مشاعر لم تحلم قطّ بوجودها. إنه غاضب، لكن غضبه ليس سوى جزء من تلك المشاعر.. ومع أنها تعرف أن هذا الغضب غير موجه ضدها، إلا أنه آلمها وكأنه رفع قبضته وطرحها أرضاً.

قالت آبي: «أريد الذهاب إلى البيت، ولكني أخاف أن أستقل سيارة أجرة بمفردي».

هز ڤاسكو كتفيه وأجاب: «مع من جئت؟ ليرافقك من جئت معه».

- لقد تركني ورحل، لذا آمل أن ترافقني.

فرد متشدقاً: «هل هذا صحيح كريدا؟ هذا إطراء لي!».

عضت آبي شفتها: «هل ستتركني أرحل وحدي.. أنسيت أنني قريبة ديلا».

أبعد يدها عن يده بحركة مهينة وقال: «اسمعي سنيوريتا، قريبتك لم تعد تهمني.. فمصلحتي لم تعد من شأن ابنة عمك».

ضاقت حنجرة آبي وصرخت: «أوه.. يا إلهي! ڤاسكو.. يجب ألاّ تهتم بما قالته في تلك الرسالة. إنها معتادة على الحصول على ما تريد، وهي لا تدرك مدى تعلّقك بريوتشو نيغرو».

قال بنعومة: «أوه.. بلى.. إنها تعرف.. وإلا لما حاولت أن تخيّرني».

www.elromancia.com

اقترحت: «إذن، أليس هذا أساس صالح للتفاوض؟».

ـ لسوء الحظ.. لا.

رفع معصمه ونظر إلى ساعته الذهبية قبل أن يقول: «خاصة وأنها في هذه اللحظات، مع رجل آخر».

نظرت آبي إليه مشدوهة: «هذا.. ليس أمراً مسلياً!».

ـ نحن متفقان تماماً على هذا، لكنني لا أمزح، فالرسالة التي حملتها لي واضحة. لقد قالت لي إنني إذا لم أتصل بها في أحد فنادق باريس في السادسة والنصف لأعلمها أنني غيرت رأيي، وأني سأعيش معها في «ريو»، فستلتقي رجلاً اسمه جيرمي بورتمان، وتبقى معه في باريس.. يبدو أنه يرغب في الزواج بها، وسيؤمن لها الحياة التي أشارت إلى أنني سأحرمها منها بكل قساوة قلب.

قالت بإصرار: «إنها تخادع.. لا شك في هذا. لقد التقيت جيرمي بورتمان، وهي لا تهتم لأمره..».

رفع يده مقاطعاً: «هذا لا يهم.. على أي حال، لن أتزوج أيّ امرأة قادرة على إرسال مثل هذا التهديد».

ـ أوه.. ڤاسكو.. لا! إنها مشوّشة، تعيسة، ولا تعرف ما تقول.. وكيف سيؤثر هذا عليك...

ردّ بصوت مجرد: «بل تعرف».

وبدت الكلمتان المختصرتان وكأنهما ورقة نعوة.

جادلت آبي مجدداً: «لكنك تحبها.. ويجب أن تسامحها».

ـ لو أحبتني كما اعتقدت.. وكانت امرأة من النوع الذي أريده زوجة لي، لما تصرفت بهذه الطريقة.. على أي حال، انتهى الأمر. إنها في باريس مع عشيقها.. وسامحيني إذا لم أدعوك للبقاء معي.. لأنني أفضّل البقاء وحيداً.

وعرفت أنها لا تستطيع تركه وهو كئيب إلى هذا الحدّ.. فهي تريد

التخفيف عنه.

ما قاله لها أرعبها.. كم أساءت ديلا الحكم عليه، وكيف لها أن تسلّط جيرمي بورتمان، الثري الأشقر، التافه، فوق رأس ڤاسكو.. وهزت رأسها.. كيف يمكن لديلا أن تفكر بالزواج برجل مثل هذا، في حين يمكنها أن تحصل على ڤاسكو!

مع ذلك، من المحتمل جداً ألاّ تكون لديها النيّة في ذلك. فلا بدّ أنها توقعت أن يتصل بها على الفور نادماً مذعناً ليوافق على كل ما تريده.

استطاعت أن تتصور غضب ديلا المتصاعد حين حلّت ساعة الصفر، من دون أيّ كلمة أو مبادرة من ڤاسكو وتأوهت بصمت، فابنة عمها على الأرجح، عائدة في هذه اللحظة لتسعى إليه. وإذا كان هذا صحيحاً فرحلتها ستكون من دون طائل، وإن اختلف شعوره في الصباح.

رفعت نظرها لتراه يرمقها بنظرة ساخرة.

ـ ألا زلت هنا سنيوريتا؟ كيف يمكن أن أقنعك أنني لا أحتاج إلى «وصيفة»؟

بدا التهكم واضحاً في كلماته المهينة، لكن آبي بقيت صامدة.

ـ لقد قلت لك إني لا أحب أن أخرج لوحدي في مثل هذا الوقت من الليل. وأنت بالتأكيد لن تمانع أن ترافقني.

لمعت العينان السوداوان بشكل شرير: «إذن.. بإمكان القأرة الهادئة أن تزمجر لو أرادت. حسناً سأرافقك.. هيا تعالي».

كان الطقس بارداً في الخارج. ومرت بهما سيارة أجرة وهما يخرجان، فراقبت آبي ڤاسكو يتقدم ليناديها.

حين توقفت، طلب ڤاسكو من السائق أن يقلّهما إلى منزلها.

عندما وصلا إلى بيتها، نظرت إلى وجهه لترى الإرهاق مرتسماً على ملامحه، فرق قلبها. قالت له: «لماذا لا تنزل لأقدّم لك فنجاناً من القهوة؟».

www.elromancia.com

تردّد قليلاً ثم برقت عيناه فجأة، وكأن فكرة مسلية عنّت على باله، وقال: «لِمَ لا؟ ما نفع الوحدة ما دام بين يدي امرأة جميلة تسليني».

دخلا شقتها الصغيرة، فدعته إلى الجلوس ريثما تحضّر القهوة.. وشعرت وكأنه يسدّ عليها الهواء في هذه الشقة الضيقة فسارعت لتهرب من تأثيره.. هل أخطأت حين دعته للدخول إلى منزلها الصغير هذا؟

حين عادت، كان ڤاسكو مستلقياً على الأريكة.. وعندما هزته قليلاً، لم يتحرك. كان يغط في نوم عميق.. تحركت بلطف، خلعت عنه حذاءه وجوربيه الحريريين، ثم أطفأت المصباح قرب الأريكة وخرجت إلى غرفتها، حيث خلعت معطفها، وفستانها، وحذاءها، واندست في فراشها.

كان الفراش قاسياً، فتقلّبت عاجزة عن النوم. لكن، حتى ولو كانت مستلقية على فراش من ريش، لن تعرف طعم النوم أبداً. راحت تنظر إلى السقف المظلم، وتفكر بالورطة التي أقحمت نفسها فيها. ديلا في باريس مع رجل لا تحبه حقاً.. وڤاسكو هنا مرهق متعب.. وهي متورطة مرة أخرى.. ولا يسرّها ذلك.

لم تكن تعرف ماذا سيقول ڤاسكو حين يستيقظ في الصباح. قد يغضب منها لأنها تركته نائماً ولم توقظه، ولكن قلبها لا يطاوعها أن تفعل.

تنهدت ودفنت رأسها في الوسادة.. لن تحتمل أنّ تشكّل هدفاً لغضبه ومرارته، لكنه أمر محتم.

وشعرت بسعادة حلوة مرة لأنه يستلقي على بُعد خطوات منها، تحت السقف نفسه، للمرة الأولى والأخيرة، حتى وإن لم تكن الظروف كما حلمت بها.

كما أحست بالسعادة لأنها خدمته، حتى ولو لم يرحب بهذا الأمر.

وفكرت بألم: آبيغايل ويستمور.. الوصيفة الدائمة.. وعلى هذه الفكرة الواقعية غير الممتعة، غطّت في النوم.

***

٢ ـ سامحيني

هزّ صوت الارتطام الغرفة، فاستفاقت آبي شاهقة، ومشوّشة. كان الوقت مبكراً، ولعله لم يتجاوز الفجر بكثير، نظراً للنور الرمادي الشاحب المتسلل من بين الستائر. قاومت لتتحرر من شرك البطانيتين، وركضت نحو الحاجز الرقيق الذي يفصل غرفتها عن بقية سكنها، ويدها تبحث بذعر عن زر الإنارة فوق رأسها.

أضاء النور الغرفة، فرأت ڤاسكو جالساً، يمرر يده في شعره المشعث، وعيناه الخاليتان من أي تعبير، تلتقيان عينيها بذهول.. بدا جلياً أنه استيقظ من قبل، لأن بقية ثيابه نثرت على الأرض. وهذا ما يفسر صوت الارتطام.

قالت: «هل أنت بخير؟ هل رأيت كابوساً؟».

قال: «ديوس».

ولامس جبهته.

ـ لو كنت أرى حلماً، فأعتقد أنه مستمر.

ـ أتعاني من صداع.. هل آتيك بدواء ما؟ بعض الأسبرين السريع الذوبان، ربما؟

وفجأة أحست آبي بلهفة للهرب.

صداع أم لا، كانت عينا ڤاسكو تتأملانها ببطء. وتنبّهت لمظهرها، فهي حافية القدمين في ثوب نوم رقيق. ولم تنتظر رده، بل أخذت عباءتها

عن الكرسي، وهربت إلى الحمام في الجهة الأخرى من الممر والذي تشاركه مع فتاتين أخريين في الطابق ذاته.

حين عادت بالأسبرين، وجدته جالساً على الأريكة مستنداً إلى الوسائد.

بدا في غير مكانه.. غريباً على الأريكة الضيقة، وكأنه نمر في حديقة ورود، فعلقت أنفاسها في حلقها، وهي تسير فوق السجادة.

قالت بصوت أجش: «هاك».

وأعطته كوب ماء فأخذه.. وانحنت تعيد المصباح إلى مكانه، وقد سرّها أنه لم ينكسر.

قال بصوت منخفض: «والآن آبيغايل.. لماذا لم توقظيني عندما غفوت؟».

بدأت آبي تلملم ثيابه وتضعها على الكرسي، ثم قالت بلهجة عادية:

ـ كنت غارقاً في نوم عميق فلم يطاوعني قلبي أن أوقظك.

ـ وهل تتوقعين مني أن أكون ممتناً لرقة قلبك؟

ـ لا.. فهذا غير واقعي.

ـ أعتقد أن هذا يصف الوضع بأكمله.

ونظر إليها بعينين شبه مغمضتين، قبل أن يقول: «أنا لا أتذمر.. لكن هذه تجربة جديدة بالنسبة لي».

ـ وأنا كذلك.. والآن ربما من الأفضل أن تحصل على قسط من الراحة، فالوقت مبكر جداً.

قال بتكاسل: «ليس الآن.. يبدو أن رغبتي في النوم قد ولّت».

تظاهرت بالتثاؤب وقالت: «على عكسي أنا. لو عذرتني، سأعود إلى النوم».

مال إلى المصباح الصغير يضيئه: «يمكنك إطفاء النور الرئيسي في طريقك».

ـ أجل.. بالطبع.. تصبح على خير.

ورفعت يدها إلى زر المصباح لتطفئه، فسمعته يقول: «بوانويت».

وكان في صوته شيء من التسلي، وكأنه لاحظ توترها، وأدرك سببه.

ـ ربما يمكنك إبعاد كوب الماء.. لأنني أجد ما يحيط بي ضبقاً قليلاً. وأرغب في تجنب الحوادث التي قد تزعجك مرة أخرى.. إذ يبدو أنني تسببت بإزعاج يكفي لهذه الليلة.

عادت آبي على مضض لتأخذ الكوب.. لكن ما إن مدّت يدها، حتى أمسكت أصابعه بمعصمها النحيل، وشدّها إلى الأمام، بحيث وقعت متعثرة على الأريكة، مقطوعة الأنفاس وشاهقة. رفعت رأسها تنظر إليه وسألته: «هل أنت مجنون؟ أتركني على الفور!».

ـ أوه.. وفّري عليّ الاحتجاجات التقليدية يا ابنة العم الصغيرة.. لماذا تركتني نائماً إذن؟

قالت مقطوعة الأنفاس: «قلت لك لم يطاوعني قلبي.. واعتقدت أنه يجب ألاّ تبقى وحيداً».

سخر منها قاسكو: «هذا نبل منك كيريدا.. ولن أجادلك. وأنا مستعد لأن تواسيني، كما ترين».

صاحت: «لا! أنت لا تفهم...».

ـ بل أفهم جيداً.

وتسللت الأصابع الطويلة إلى كتفيها. وأضاف: «مواساتك لي فاتنة، خاصة وأنك تبدين جميلة في ثياب نومك.. لقد أثرت فضولي سنيوريتا.. وأرغب في أن أرى المزيد».

توقف لحظة ثم قال باستحسان متكاسل: «بيلا».

قالت بارتباك: «أرجوك دعني، مهما كنت تظن، أنا لم أقصد هذا.. أردت فقط أن أساعد..».

ـ وهذا ما تفعلينه كارينا، صدقيني.

ولمعت عيناه السوداوان، وأخذ يمرر أطراف أصابعه على بشرة وجهها العاجية.. فوجدت نفسها محبوسة الأنفاس.

لا بد أنها تحلم، هذا ما خطر في بالها وهي تكاد تفقد وعيها. وتابع ڤاسكو: «لعلك لم تنوي هذا.. لكن هل يمكنك أن تنظري في عيني وتقولي لي إنك لا تريدينني؟».

وأدركت أن هذا سبيلها للخلاص.. سبيلها للخروج من حقل الألغام العاطفي. وهذا ما تحتاجه بيأس لو أرادت تجنب أن تبدو غبية بلهاء.

ولم تصدّق نفسها حين أحست بفمها المرتجف الخجول يشكّل كلمة لا.

هذا جنون، وتعرف هذا.. بعد بضع ساعات، سيخرج ڤاسكو من حياتها إلى الأبد، وهو يعتقد ساخراً أنها رمت بنفسها عليه. كرامتها واحترامها لنفسها وحدهما يجب أن يدفعاها للتراجع، ولرفض هذا الرجل.

وفكرت.. لكنني أحبه..

تملكها شعور غريب، لكن، يجب أن تقاوم.. وإلا ستضيع إلى الأبد. وأدركت بوضوح بارد أنه يستغلها، هذا كل ما في الأمر.. إنه يناور في موقف أوجدته بنفسها من شدة سذاجتها.

هو لا يهتم بها، ولماذا سيهتم؟ فهي مجرد تسلية له، وهذا لا يكفيها.. ولا يمكن أن يكفيها أبداً.

وبصوت بالكاد ميّزته، صاحت: «توقف.. أرجوك!».

ونظرت عيناه إليها وسأل: «هل أنت...؟».

ـ أجل، لم أعرف رجلاً قطُّ!

وكان وجهها جامداً كالحجر وهي تنظر إليه.

قال شيئاً بصوت ناعم، ثم أرجع شعرها بيده عن جبينها. هذه المداعبة غير المتوقعة، كادت تفقدها شجاعتها وجعلتها ترغب في أن

تتعلق به، وأن تبوح له بمشاعرها نحوه.. لكن هذا مستحيل.

رأت وجهه الأسمر يتشنّج، ثم ابتعد عنها وهو يتنفس بخشونة، ووجهه مدفون بين ذراعيه المطويتين.

جلست آبي من دون حراك، تحدق في الغرفة.. أحست أنها مذهولة، وخطر الانجراف وراء أحاسيسها يبدو تافهاً مقارنة مع العذاب الذي تختبره الآن. لكنه لا يزال حقيقياً، ووجود ڤاسكو المستمر إلى جانبها يهددها.

ابتلعت غصة في حلقها.. ثم قالت: «هلا ذهبت الآن.. أرجوك؟».

ساد الصمت، ثم رفع ڤاسكو نظره إليها والعبوس يرتسم على وجهه.

قال بخشونة: «يجب أن نتحدّث».

ـ لا!

كان صوتها عنيفاً، وحاولت آبي التظاهر بالشجاعة، حين رأت الذهول في عينيه.

ـ ليس هناك ما نتكلم عنه. وأريدك أن تغادر.. الآن.

تأملها بكآبة للحظات، ثم هزّ كتفه البرونزية بلا مبالاة.

ـ كما ترغبين.

ونهض، ثم، ساد الصمت.. وأدركت آبي ببؤس أنه ينظر إليها، لكنها أبقت عينيها مغمضتين بشدة، وراحت أظافرها تغوص في راحتي يديها.

فليفكر كما يريد لأنها لا تريد أن تنظر إليه.. فليرحل وحسب.

أخيراً سمعته يتنهد، ثم قال بصوت هادىء يكاد يكون ساخراً:

ـ آديوس.. أيتها الوصيفة.

لم ترّد، ولم تجرؤ على الاسترخاء إلا بعد أن سمعت باب الشقة ينغلق خلفه. وسمحت لنفسها بذرف دموع بطيئة ومريرة.

استفاقت في وقت متأخر من الصباح واستلقت لوقت طويل، تحاول

www.elromancia.com

استجماع الطاقة اللازمة لتنهض وتقوم بمهمات نهاية الأسبوع المعتادة.

كانت المستأجرات الأخريات يقضين إجازة نهاية الأسبوع مع ذويهن، فتمكّنت آبي من قضاء وقت طويل في المغطس.. وغسلت شعرها وكأنها تمارس طقوس تنظيف احتفالية.

وللمرة الأولى، لم ترتد ثيابها، بل اكتفت بلبس عباءتها، وهي ترتّب مسكنها الصغير. يجب أن تجبر نفسها على العمل، فهي الطريقة الوحيدة لتتخلص من وجود ڤاسكو في الغرفة، والسبيل الوحيد لو أرادت أن تحافظ على سلامة عقلها.

لقد أنقذت نفسها منه في اللحظة الأخيرة وتحمد الله على ذلك.. فهي ما كانت لتحترم نفسها أبداً لو استسلمت له. في جزء خفي من عقلها، كانت تعرف ماذا سيحدث.. وأرادته أن يحدث.. لكن عليها الآن أن تبعده عن تفكيرها.. أن تنساه.

كان عليها أن تخرج لتشتري طعاماً، لكن فكرة زيارة مركز التسوق المزدحم والرد على التحيات المرحة للباعة الذين اعتادوا زياراتها المنتظمة أزعجتها. سوف تتدبر أمرها بما يتوفر في البراد الصغير.

ومع حلول المساء، كانت الشقة تلمع. لكنه أطول يوم أمضته.. وبدأت الجدران تطبق عليها بخوف مرضي مفاجيء.

سخّنت علبة حساء صغيرة في المطبخ المشترك، وحمّصت بعض الخبز، وودّت أن تأكل في المطبخ، لكن صمت المكان بدا ثقيل الوطأة عليها. فحملت الصينية إلى غرفتها، وتناولت الطعام قرب المدفئة.. أدارت جهاز التلفزيون، وجلست تشاهد عرضاً مرحاً، قبل أن تبدّل القناة لتتابع فيلم كاراتيه. لكن الأحداث المأساوية، بدت لها تافهة بالمقارنة مع مشاكلها.

كانت على وشك أن تطفيء جهاز التلفزيون حين رن جرس الباب، فأجفلت. لا بد أن هذا كيث، جاء ليعتذر عن سوء تصرفه في الليلة

السابقة، لكن لم تكن لديها أيّ رغبة في رؤيته.. أو سماع أي اعتذار. لو بقيت ساكنة، قد يرحل.

رن جرس الباب مجدداً وبإلحاح، فتنهدت. الممر مظلم بالطبع، وسوف يرى النور يشع من تحت الباب.

تقدّمت بخطى مترددة نحو الباب، ثم جمدت حين خطرت في بالها فكرة أخرى. قد لا يكون الطارق كيث. لعلها ديلا، جاءت على عجل من باريس، تطالب بمعرفة ما حدث لرسالتها.

أحست آبي بفمها يجفّ فجأة، ومررت لسانها بسرعة على شفتيها.. أوه يا إلهي.. لن تستطيع مواجهة ديلا.. وما سيلي هذه المواجهة.

فبعد أن فشل مشروع ابنة عمها في أن تخضع ڤاسكو، ستفتش عن كبش محرقة.. وآبي متلفة الأعصاب وتعيسة، ولن تتمكن من مواجهتها.

توقّف الجرس عن الرنين، فتنهدت بارتياح، لكن أملها في رحيل الزائر تبدد عندما أخذ الطارق يدق على الباب بقوة، وقد يزعج بقية المستأجرين في المبنى.

نادت بقلق: «حسن جداً.. دقيقة فقط!».

شقّت الباب قليلاً، لكن أحدهم دفعه من الخارج بتصميم ودخل، إنه ڤاسكو دا كارڤالو. صفق الباب خلفه ووقف ينظر إليها متجهماً.

ارتفعت يد آبي إلى رأسها وسألت بصوت متكسر: «ماذا تريد؟».

قال بلهجة ناعمة وعنيدة: «أن أتحدث إليك.. أم ظننت حقاً أنه يمكن أن تتخلصي مني بسهولة؟».

عادت تقول: «ماذا تريد؟».

لكنه أمسك ذراعها وقادها إلى الأريكة بنفاد صبر.

قال باختصار: «اجلسي».

وتقدم إلى التلفزيون ليطفئه.

فارتفع حاجبا آبي استنكاراً وقالت: «أرجوك.. تصرف وكأنك في

www.elromancia.com

بيتك».

رمقها بنظرة ساخرة وأجاب: «أعتقد أنني سبق وفعلت هذا.. ألا تظنين هذا؟».

خطوتان سريعتان أوصلتاه إلى جانبها. وبدت الغرفة.. ضيقة وصغيرة بوجوده.

أمسك يديها الصغيرتين الباردتين، وجرّها لتجلس قربه على الأريكة. وساد صمت قصير، قطعه قائلاً بلهجة آمرة: «انظري إلي».

أطاعته على مضض، وراحت تنظر إلى وجهه الصارم الذي لا يبتسم، وهي تتساءل عن طبيعة الشعور الذي يتملكها في هذه اللحظة.

ـ ڤاسكو.. إذا كنت تظن أنني سأخبر ديلا أنك حاولت التقرب مني.. أعدك بألا أفعل. كنت غاضباً ليلة أمس، وقلت أشياء كثيرة لم تكن تعنيها.. ولن تتوقف عن حب شخص بهذه السهولة، مهما فعل.

قال بخشونة: «ما إذا كنت أحب ابنة عمك أمر لم يعد يهم. لقد جعلت زواجنا مستحيلاً. وأنا لا أقبل فضلات رجل آخر، زوجة لي».

ـ أولن تعطيها فرصة للشرح؟

هز كتفيه: «ما من حاجة للشرح. لقد أمضيت يومي وأنا أتصل بعائلتي وأصدقائي لأقول لهم إن الزواج لن يتم. ولقد تحدثت إلى عمك وزوجته، وسيضعان الإعلان الضروري في الصحف».

عضت آبي شفتها: «يبدو أنّ كل شيء قد انتهى.. أنا آسفة».

هز رأسه: «ليس هناك ما يمكنك الأسف عليه. فديلا وأنا كما يبدو.. استخدمناك كبيدق ضعيف في ألعابنا الأنانية، ولا أستطيع سوى أن أطلب منك الصفح آبيغايل.. وأن تسمحي لي بالتعويض عليك».

أمسك إحدى يديها الفاقدة للحس ورفعها بسرعة إلى شفتيه، ثم قال بنعومة: «تزوجيني كيريدا...».

***

٣ ـ لن تكون حرّة

قالت آبي بصوت ضعيف: «هل جننت؟».

ارتفع حاجباه الأسودان وأجاب: «لا أعتقد.. يبدو لي أن اقتراحي هو الحل الوحيد لعدد من المشاكل».

لقد قال «اقتراحي» ولم يقل «طلبي يدك».

ورفعت آبي ذقنها قائلة: «أعتقد أن هذا نبل منك. حسناً.. لا داعي للقلق.. ردي هو «لا»».

ضاقت عيناه: «لا أصدق.. فكري مرة أخرى».

تصاعد الاحمرار إلى وجهها: «لا، مطلقاً».

قال ببرودة: «أنت لست ساذجة وحسب، بل جاهلة.. لا أستطيع العودة إلى البرازيل يا آبيغايل، بدون زوجة».

عضت شفتها وسألته: «لماذا؟».

قال ببرودة: «الكل في المزرعة يعرف أنني سأتزوج.. فبمَ أبرّر عدم زواجي؟ لا أحب أن أحفّر نفسي أو أقلّل من مكانتي».

أمسكت أصابعه الطويلة وجهها، وأجبرها على مواجهته: «أريد أن أذهب وزوجتي معي.. أنت.. سنيوريتا».

أحست بحلقها يضيق.

ـ ڤاسكو.. أنت لا تزال تحب ديلا.. ولم يفت الأوان بعد. فهي لا تريد أن تتزوج جيرمي بورتمان، أقسم لك.. فكرة «ريوتشو نيغرو» هي

www.elromancia.com

التي تخيفها.. إنه مكان مختلف تماماً عما عرفته، إنها معتادة على المحلات، والمسارح، والمطاعم.. وهذا جزء من عالمها.

ارتسم الاكتئاب على وجهه وقال: «أعرف، وكنت على استعداد للتسامح.. لكن لن أذعن لابتزاز عاطفي».

قالت بإصرار: «لكن يمكنك أن تبذل بعض الجهد.. ألا يمكنك أن تحدد موعداً زمنياً.. يؤكد لها أنك ستنتقل للعيش أخيراً في ريو؟».

- يبدو أنك تعانين من المشكلة نفسها مثل ابنة عمك. افهمي هذا آبيغايل.. «ريو تشو نيغرو» هي لي.. إنها ملكي. وهي تمتلكني كذلك، هذا ما حاولت شرحه لديلا. ما من إمكانية ولو ضئيلة لأن أعيش في ريو.

أصرت: «ربما لم تدرك هذا».

- لنكن صادقين، ديلا لم ترغب في أن تفهم شيئاً، مع أنني شرحت لها الموقف مرات ومرات.

والتوى فمه سخرية وهو يضيف: «والآن يجب أن أشرح لك الأمر. لقد ورثت مزرعة ريو تشو نيغرو عن ابن عمي الفونسو دا كارڤالو. كانت عائلته قد احتلت الأرض هناك منذ أجيال عدة، وراحت تزرع الكاكاو.. ولقد كتب لي خلال إحدى عطلاتي الجامعية يدعوني لزيارته، ولأننا كنا قد فقدنا الاتصال بهذا الجانب من العائلة تقريباً، وافقت، وكنت صغيراً بما يكفي لأفكر بالمغامرة».

- أولم تكن مغامرة؟

- في البداية، بلى. كان الفونسو أكبر مني، وقد تزوج في سنّ متأخرة.. كانت زوجته شابة جداً، وملاكاً، وتنتظر طفلهما الأول. قام بالتحضيرات اللازمة لهذا الحدث الهام، وكان من المقرر أن تُنقل بياتريس في الوقت المناسب إلى مستشفى صغير في «ماناوتس» وبدا كل شيء على ما يرام.

وتجهم وجهه باكتئاب وهو يتابع: «ثم، وفي صباح أحد الأيام

استدعي لتفحص بعض الأشجار الجديدة، التي تُظهر أعراض مرض ما.. مرض فطري يدعى «مكنسة الساحرة» ولا يشفى إلا بحرق الأشجار الموبوءة..».

وتنهد، ثم أضاف: «كنا قد بدأنا بقطع الأشجار الموبوءة حين وصلت رسالة من المنزل.. كانت بياتريس تشعر بآلام المخاض، وقبل ستة أسابيع من موعدها، فأرسل بطلب طبيب من البلدة القريبة، لكن الأوان كان قد فات.. وحصلت تعقيدات، وفي خلال ساعات، ماتت الزوجة والطفل».

هز رأسه مجدداً: «فيما بعد، أصبح رجلاً مختلفاً. بدا وكأنه فقد كل إرادة للحياة.. للكفاح.. وقلقت عليه، وعلى ما قد يُقدم عليه. كان عليّ أن أعود إلى الجامعة لأكمل دراستي، لكنني عرفت أن هذا مستحيل. فقد كان يحتاج إليّ.. لذا بقيت».

سألت آبي: «ألم يكن هذا قاسياً عليك؟ كنت صغيراً جداً كي تواجه مثل هذا الوضع».

هز ڤاسكو كتفيه وأجاب: «ربما.. لكنني أحببت ألفونسو، وبياتريس.. وفهمت حزنه، وشاركته إياه. مع مضي الوقت، راح يعتمد عليّ أكثر فأكثر.. ووجدت نفسي أدير المزرعة مع المشرف عليها. في البدء، اهتممت بحصاد الكاكاو، لأنني اضطررت ذلك، لكنني اكتشفت أن اهتمامي حقيقي.. شكّل هذا العمل نوعاً من التحدي، ما كنت لأجده في الحياة المريحة المتوقعة لي في ريو. وحين مات ألفونسو، تاركاً المزرعة لي، ابتهجت. ولم يخطر في بالي أنني أصبحت حراً في العودة إلى ريو لأتابع حياتي هناك.. في قلبي، كنت قد أصبحت جزءاً من ريوتشو نيغرو..».

وأضاف بجفاء: «كما حاولت إفهام ابنة عمك».

بدأت تقول: «وما كانت لتفهم».

لكنه قاطعها، وقد عقد حاجبيه: «لا يا آبيغايل، أنت التي لا تفهمين.. خطوبتي من ابنة عمك انتهت.. ولقد طلبت منك أن تكوني زوجتي.. وما زلت أنتظر رداً».

ساد صمت طويل، أخذ خلاله قلب آبي يتخبّط بين ضلوعها.. وقالت: «هذا مستحيل».

ركز نظراته على وجهها بشكل يثير الأعصاب وسألها: «ولماذا؟».

هزت كتفيها: «لأن.. لأننا غرباء عن بعضنا».

ابتسم ببطء ومرح، ثم أجاب: «لكننا، غريبان حميمان».

ووجدت شفتيها تنفرجان غصباً عنها.

- إضافة إلى هذا كيريدا، ولأكون صادقاً، ليس هذا ما أفكر فيه فقط. فجيراني، وعمال المزرعة، يتوقعون مني أن أعود متزوجاً. والعودة إلى ريوتشو نيغرو وحيداً لن تكون تجربة لطيفة.. ففي مثل ذلك المجتمع الصغير سنكثر الشائعات.. والتخمينات.

سألت آبي: «وهل تظن أنهم لن يقولوا شيئاً لو عدت مع امرأة أخرى؟ أم تتوقع مني أن أتنكر في زي ديلا؟».

قال بنفاد صبر: «بالطبع لا.. لماذا تصرين على ذكرها في كل فرصة؟».

لوّحت آبي بيدها: «لأنها موجودة، ولا تستطيع صرف الناس من حياتك هكذا!».

بدا نفاد الصبر في صوته وهو يقول: «القرار كان لها وحدها. والقرار الذي يهمني الآن، هو قرارك».

احتجت: «لكنه يبدو قراراً وحشياً».

سأل ساخراً: «أهذا ما تعتقدين؟ أنا أحاول أن أكون واقعياً.. أن ألين مع ضغط ظروفنا».

صمت لحظة، ثم تابع بلطف أكثر: «أجل.. نحن أقل من غرباء

بقليل.. لكن في عالمي، هذا ليس أمراً غريباً.. كما لا يمكنك أن تنكري أننا متناسبان من ناحية واحدة».

رنة صوته، الذكرى في عينيه، جعلت الاحمرار يجتاح وجه آبي.. وقالت متلعثمة قليلاً: «لست أدري كيف تستطيع قول هذا بعد..».

قال ساخراً: «بعد أن سمحت لإحساسك بالتحرك.. لكن يجب أن تعترفي أنك أحسست بالرضا بين ذراعي حتى واجهت الحقيقة، وأنا نادم لأنك رفضتني.. في المرة القادمة لن أترك لك فرصة للرفض، أعدك بهذا كارينا».

قالت آبي مرتجفة: «لست مضطراً لأن تعدني.. فأنا.. لا أريدك أن.. تلمسني مرة أخرى.. لن أتحمل هذا. ولهذا لا أستطيع أن أتزوجك، فاسكو، وسأتدبر أمري بطريقة ما..».

اشتدت يده على ذراعها، وانغرزت أصابعه فيها، ثم سألها بخشونة: «وهل تظنين أنني سأقبل ردّك هذا وأقنع به؟».

هز رأسه قبل أن يتابع كلامه: «أنت مخطئة سنيوريتا.. أريدك زوجة.. لقد خدعتني قريبتك وسيكون عليك أنت تحمّل العاقبة».

صمت قليلاً ثم أضاف: «أما بالنسبة لعدم رغبتك في أن ألمسك...».

وابتسم بمكر قائلاً: «فأنا أنوي أن أغير رأيك بهذا الخصوص».

قرّبها منها قبل أن تتمكن من أتخاذ موقف دفاعي، ودسّ يده في شعرها الناعم ليثبّت رأسها.

فتحت يديها على صدره، تحاول دفعه بعيداً. لكن بدلاً من ذلك انكمشت أصابعها كمخالب قطّة صغيرة فوق جسمه القوي. وكأنه أحس بانهيار دفاعاتها، فأرخى قبضته ليسمح ليديه بأن تنزلقا على ظهرها النحيل الرشيق، وأدناها منه ليعانقها.

حين ابتعد عنها قليلاً، شعرت آبي بدوار وأحسّت بأنها مقطوعة

www.elromancia.com

الأنفاس، ز فقد كان لعناقه تأثير السحر في كيانها كله. ولاحظت احمراراً طفيفاً على خده.. ولمعان العينين السوداوين وهما تنظران إليها.

قال بصوت ساخر: «حسن جداً كارينا.. هل أبرهن لك بالضبط كم يمكن أن نكون منسجمين؟».

ابتهجت عيناها وهي تنظر إلى وجهه. وانتابها فجأة الخوف من الإحساس القوي الذي يثيره عناقه.. وترافقت مع الخوف عقدة ترقب، بعد أن ذكّرها قلبها الجائع للحب بمدى إحباطه.

كانت يداها ترتفعان من دون كلام لملامسته، حين قاطعهما جرس الباب وأعادها إلى واقعها بشدة.

ابتعدت عنه بسرعة محرِّرة نفسها من يديه اللطيفتين..

ـ أحدهم عند الباب!

منعها ڤاسكو من الحراك، ويده تلامس مؤخرة عنقها وهمس: «سيذهب».

قالت بحدة: «لكنك لم تذهب».

وخلصت نفسها بتصميم.

فرفع كتفيه قائلاً: «لا.. لكن لدي سبب. تخلصي منه بسرعة كيريدا، وعودي إلي».

وهذا ما لن تفعله. فكرت آبي بهذا وهي تتجه إلى الباب في عجلة. الزائر المجهول هو خلاصها.. تذكرة للفرار من فيض أحاسيسها، ومن ڤاسكو.

الزواج منه.. العيش حسب شروطه الحميمة، يكاد يكون مستحيلاً. والاستسلام لما يريد مستحيل أيضاً، لا سيّما إذا أرادت الحفاظ على سر حبها له.

إن كيث هو من يقف بالباب.. هذا ما فكرت فيه وهي تبذل جهدها لتفتح القفل.. يجب أن تستغل وجوده لتخرج ڤاسكو من الشقة، ومن

حياتها.

كانت تراجع ما ستقوله وهي تفتح الباب.. لكنها لم تتلفظ بكلمة واحدة، بل فغرت فمها قائلة: «ديلا؟».

فقالت ابنة عمها بنفاد صبر: «أجل ديلا.. ما بالك بحق الجحيم؟».

أجابت آبي مخدرة الأحاسيس: «لكنك في باريس».

ـ كنت.

والتوت شفتا ديلا: «لقد عدت لأحصل على تفسير.. ماذا فعلت برسالتي؟».

تمسكت آبي بمقبض الباب: «أوصلتها، ديل.. لا أستطيع مناقشة هذا الأمر الآن.. سأحضر في الغد و..».

فصاحت ديلا: «ستتكلمين الآن، ولن تخبريني المزيد من الأكاذيب. أنت لم توصلي الرسالة، لقد بقيت قرب الهاتف اللعين حتى منتصف الليل.. لذا لا يمكن أن يكون قد تلقى الرسالة. فماذا فعلت بها، أيتها السافلة المتآمرة الصغيرة؟».

ـ ديل.. أرجوك اذهبي إلى بيتك!

حاولت ديلا دفع آبي وتجاوزها لتدخل.. لكن آبي سدت عليها الطريق بإصرار.

ـ في الغد ستكون الأمور على ما يرام.. وأنا.. سأحاول إصلاح الأمور و...

اختلط غضب ديلا بالذهول: «تصلحين الأمور؟».

وأمسكت آبي بكتفيها، تبعدها من طريقها.

ـ وماذا يجعلك تظنين..

واختفى صوتها وهي تدخل الشقة.. ثم استدارت لتنظر إلى ابنة عمها بتعبير جعل آبي تضطرب.

وأخيراً قالت ديلا: «أيتها البقرة المعسولة اللسان.. إذن.. هذا ما

www.liilas.com

يجري. قررت أن تحصلي عليه لنفسك.. ولا عجب في أنه لم يردّ عليّ حين اتصلت بشقته!».

جف فم آبي وقالت: «ديلا.. الأمر ليس كما يبدو..».

لكن صوت ڤاسكو المتشدق قاطع تلعثمها: «ولماذا تزعجين نفسك كارينا؟ فعلى أي حال هذا بالضبط ما يبدو لها».

كان قد تخلص من سترته وربطة عنقه وفك أزرار قميصه.. ووقف، ويداه على وركيه، ينظر إلى ديلا بتعبير غامض.

وارتجف صوت ديلا: «ڤاسكو.. حبيبي! كيف تفعل هذا بي.. بنا؟ أنت تعرف أنني كنت أنتظرك في باريس..».

هز كتفيه، وقال ببرود: «هذا ليس ما ذكرته في الرسالة.. على أي حال.. وجدت شروطك غير مقبولة.. أنت رغبت في الزواج من رجل أعمال في ريو وليس من مزارع كاكاو في الأمازون. وأتمنى لك حظاً أفضل في غزواتك التالية للحصول على زوج».

ارتجفت عضلة صغيرة في وجه ديلا: «لكن العرس بعد أسبوعين!».

صحح لها ببرودة، شعرت آني وكأنها تخترق عظامها: «أنا آسف على الإزعاج الذي سيسببه الإلغاء.. إلا إذا استطاع السنيور بورتمان أن يأخذ مكاني».

توسّلت ديلا شاهقة: «حبيبي! جيرمي لا يعني لي شيئاً. قلت هذا فقط، لترى حقيقة شعوري..».

ـ إذن لقد نجحت بشكل يثير الإعجاب.

وبدا وجهه كأنه منحوت من الصخر، حين قال: «لقد أقنعتني أن بيننا فوارقاً لا يمكن تسويتها بالزواج».

فقالت ديلا بسرعة: «لكنك غير منطقي».

وفقدت انزانها وبدت خائفة فعلاً.. وأدركت آبي هذا بإشفاق.

ـ أنا أريدك.. وتعرف هذا. ربما تماديت كثيراً، لكنني مستعدة

لمسامحتك على.. لهوك مع هذه المخادعة هنا. وبالتأكيد يمكنك أن تعاملني بالمثل؟

ونظرت إلى آبي نظرة حقد، فرمقها ڤاسكو بنظرة مماثلة، وقال بصوت لطيف: «ارتدي ملابسك كيريدا. لقد حجزت لنا طاولة في المطعم، لنحتفل».

صاحت ديلا: «أي احتفال؟ ماذا يجري هنا بحق الجحيم؟».

واستدارت إلى ڤاسكو، تفتح يديها متوسلة: «حبيبي.. لقد قلت لك.. سأسامحك. لا شك عندي في أن الفاسقة الصغيرة رمت بنفسها عليك، و..».

ـ لن تتكلمي عن زوجتي العنيدة بهذه الطريقة.

كان لكلماته الهادئة وقع الصاعقة عليها.

ـ والآن.. لعله من الأفضل أن تغادري.

قالت ديلا بصوت مصدوم غاضب: «زوجتك؟ يا إلهي.. أتعني أنك ستتزوج حقاً، هذه الفاسقة البشعة المسطحة الصدر، هذه الأفعى اللعينة الحقيرة...».

تقدّم ڤاسكو وأمسكها بذراعها، ثم قال ببرودة: «اسمحي لي أن أرافقك إلى الشارع.. حيث تنتمي ألفاظك».

ونظر إلى آبيغايل مكرراً: «بدلي ملابسك.. لم يعد أمامنا الكثير من الوقت».

وأقفل الباب وراءهما، لكنها استطاعت سماع صوت ديلا وهي تهذي بعنف. وأحست بصدى الحقد والغضب يتردد عائداً إليها، مع أنها لم تستطع فهم أي كلمة. استلقت على السرير، ووضعت يديها على أذنيها.. فهذا المشهد سيلاحقها دائماً.. وارتجفت.

بدا لها الوقت طويلاً جداً قبل أن يعود، وسمعت صوت الباب غير مصدقة، لا يمكن ألاّ يكون قد تأثر بمعاناة ديلا.. بغيرتها ويؤسها!

وقف ينظر إليها، من دون أن يظهر على وجهه أي تعبير.

ـ هل تنوين تناول العشاء معي وأنت ترتدين هذه العباءة؟

ـ أتعني أن الحجز في المطعم حقيقي؟

وسارعت تنزل عن السرير.

قال بتفاخر بسيط: «طبعاً.. بدت لي هذه طريقة ملائمة لاعلان خطوبتنا».

فاحتجّت: «لكننا لسنا مخطوبين».

قال بصوت منخفض: «أوه.. بلى. شئت هذا أم أبيت يا آبيغايل.. ما من طريقة تجعلني أتركك هنا تحت رحمة ابنة عمك.. إنها على استعداد للتسبب لك بالأذى».

تمتمت آبي: «لا ألومها».

قال بقسوة: «هذه وجهة نظر لا نتشارك فيها.. أنت لا تدينين لها بشيء».

ابتلعت ريقها وأجابت: «أنت لا تفهم.. لقد ربيت معها، وذهبنا إلى المدرسة معاً.. والداها كانا.. لطيفين جداً معي..».

التوى فمه سخرية وقال: «حقاً؟ كم هذا غريب. حين زرت منزلهم للمرة الأولى، والتقيتك هناك، وجدت صعوبة في أن أميّز ما إذا كنت قريبتهم، أم خادمة لديهم».

احمر وجه آبي: «لن تردد مسألة «الوصيفة» مرة أخرى».

قال بهدوء: «لقد سمحت لها أن تستغلك، ولن تفعلي هذا ثانية».

ونزلت يداه على كتفيها، لكنها ابتعدت عنه وسألت بمرارة: «ولمَ لا؟ كي تستغلني أنت بدلاً منها؟».

ـ هذا غير ضروري.. كنت أفكر بما قلته لي.. التحفظ الذي تشعرين به.. لذا سيكون زواجنا حسب شروطك آبيغايل.. لقد ظلمتك بما يكفي، ولن أجبرك على علاقة لا ترغبين فيها.. فهل يسهلّ هذا الأمور

عليك لتوافقي؟

ابتلعت ريقها متألمة.. وقالت أخيراً: «بشرط واحد.. أريدك أن تعدني.. إذا لم تسر الأمور على ما يرام بيننا، لا داعي لأن نتمسّك بهذا الزواج، ويمكننا أن نفترق، وأن.. نتابع حياتنا كل على حدة».

ساد صمت متوتر، وانتظرت، لا تجرؤ على النظر إليه.

أخيراً، قال من دون تعبير: «حسن جداً.. إذا كان هذا ما ترغبين به حقاً.. هل نجرب ستة أشهر؟».

هزّت رأسها: «يبدو هذا.. معقولاً».

فقال باحترام: «أنا مسرور لظنك هذا.. والآن يجب أن تغيري ملابسك.. وإلا ستتأخر».

عاد إلى الأريكة، وبعد لحظة سمعت صوت جهاز التلفزيون.

نظرت إلى خزانة الملابس بإحساس غير واقعي.. أحست أنها تعيش في حلم ما، وليس حلماً لطيفاً.

لقد وافقت على الزواج من ڤاسكو كارڤالو، لأسباب غير ملائمة.. وبعد أيام، ستصبح زوجته وستنتقل لتعيش معه في الجهة الأخرى من العالم.

عضّت شفتها.. وفكرت.. إنها غير مؤهلة لهذه الحياة على غرار ديلا.. لكنها مستعدة لأن تلحق بڤاسكو على جبل جليدي حافية القدمين، إذا ما طلب منها ذلك.

لكنه لن يطلب.. ولن تقول له.. فمثل هذا الاعتراف سيحرجه، لأنه لا يهتم بها.. بل يهتم بشرفه الذي أساءت إليه ديلا. نظرت إلى نفسها في المرآة.

تساءلت يائسة: هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ وأجرت بعض الحسابات السريعة في رأسها.. عندما ستكتشف الحقيقة ستكون في طريقها إلى البرازيل، ملتزمة بهذا الزواج، الذي لا يشبه أيّ زواج.

اختارت فستاناً، ونظرت إليه. كان رمادي اللون، حريرياً، وملائماً جداً.. لكنه يجعلها تبدو كالشبح، شاحبة، غريبة، مجرد صورة معكوسة لجمال ديلا.

لعل ڤاسكو تخلى عن ديلا.. لكنه سيشعر بالندم على ما فقده.. ولو كانت تلك المخلوقة المتحذلقة الخبيرة كما تصوّرها وأرادها، لتركها أيضاً، من دون أن ينظر إلى الوراء، بدلاً من أن يقيّده إحساسه بالواجب.

تنهدت، وبدأت ترتدي ملابسها. يجب أن تبذل بعض الجهد، فهي ستخرج لتحتفل بخطوبتها مع الرجل الوحيد الذي أحبته يوماً وأرادته.

ستسافر معه إلى البرازيل.. وستعيش معه هناك، تحت سقف بيته، إذا لم يكن في قلبه.. وستضطر إلى إخفاء مشاعرها الحقيقية عنه بشدة.

حاولت أن تواسي نفسها: لكن ليس لوقت طويل.. ستة أشهر ليست العمر كله. بعد هذه المدة ستصبح حرة.

لكنها كانت تعي أنها لن تكون حرة أبداً.

***

٤ ـ المرأة المزيفة

انحدرت الطائرة بحدة وهي تستدير لتقترب من المدرج. وأجفلت آبي فأغمضت عينيها مع ظهور منظر الأشجار المتمايلة تحتها.

عادة، لا يسبب لها الطيران التوتر. ولقد استمتعت بالرحلة إلى ريو دو جنيرو، وراحت تشهق بابتهاج وهي ترى الخليج، والشواطىء، وتمثال المسيح الضخم المطلّ على المدينة. لكن المرحلة الأخيرة من الرحلة والتي أوصلتهما إلى ريوتشونيغرو، أثارت ارتباكها.

ولم يكن السبب شكها بمهارة الطيار، بيدرو لازارو، الشاب المرح، فهذا خبزه اليومي. لكن في كل مرحلة من مراحل الرحلة، كانت الطائرة التي يسافرون على متنها أصغر حجماً من تلك التي سبقتها.. فتطبق عليها، وتذكرها بالتواصل الحميم الذي فرضه عليها زواجها من ڤاسكو.

وكان انتظار عزلتها الوشيكة معه يثير توترها وقلقها.

تصرّفت بجنون حين قبلت بهذا، وهي تدرك ذلك تماماً. وقد تأكدت من ذلك في كل يوم كان يقرّبها من المراسم المختصرة التي تجعلها زوجته، ولو بالإسم.. كان تفسيرها المتلعثم لرب عملها المذهول حين قدمت له استقالتها، أول اختيار لها. فقد أدركت أنه يعتبرها عانساً، ومملة.. وسعيدة بلعب دور سكرتيرته لما تبقى من حياتها.

وزيارة عمها وزوجته، حملت معها مشاكل جديدة، فجورج ويستمور لم يكن مرتاحاً، في حين أن زوجته لم تظهر أيّ تحفظ. ووجدت آبي

www.elromancia.com

نفسها تتلقى كماً من الاتهامات والتوبيخات، تتراوح بين الاتهام بالخيانة الوقحة ونكران الجميل. وتركت هذا السيل يتدفق، وقد منعها الأسى الذي تملكها، من النطق بكلمة واحدة تدافع فيها عن نفسها.

وصول ڤاسكو غير المتوقع وضع حداً للمشهد الكريه.. فقد أوقف بأدب، لكن بعناد، وابل الكلام الجارف، وأوصل الزوجين إلى الباب.

وحين عاد قال بجرأة: «مسكينتي آبيغايل.. أنا لا أتسبب لك سوى بالمشاكل، على ما يبدو».

فردت ببؤس: «لكنك لست سعيداً أيضاً، أرجوك ڤاسكو، أرجوك.. ألن يكون من السهل أكثر أن.. ننسى الأمر كله؟ وأن تعود إلى البرازيل وكأن شيئاً لم يكن؟».

اشتدت قساوة عينيه السوداوين وهما تتفحصان وجهها الشاحب.

ـ لكنه كان، ولا يمكن أن نتهرب الآن.. إنه يفرض علينا.. الالتزام.

ـ أن تحب شخصاً آخر، أليس في هذا أي التزام؟

ـ نظراً لظروفنا، أعتقد أنّ هذا أمر ثانويّ.. ربما من الأفضل ألاّ نشير إلى ذلك مرة أخرى.

أخرج لفافة مسطحة من جيبه ورماها في حجرها.

ـ جئتك بهذه.. صور لمنزلك المستقبلي، كي أقنعك أنني لن أنفيك إلى كوخ في الأدغال.

وقبل أن تنطق بأيّ كلمة، خرج.. وتأملت آبي الصور مرات ومرات.. حتى انطبعت تفاصيل المبنى الأبيض الواسع في رأسها. وحاولت أن تربطه بنفسها، ففشلت. هذه الصور لديلا.. والمنزل لديلا.. وآبي تدرك جيداً أنها ليست سوى دخيلة.. متطفلة.

أرجعت الصور إلى المغلف، وأعادتها إلى ڤاسكو في زيارته التالية من دون تعليق.

كان حريصاً على رؤيتها.. يزورها في الشقة كل مساء.. يأخذها

للعشاء، أو إلى المسرح، وكأن توددهما لبعضهما البعض أمر حقيقي.. أو لعله يفضل أن يملأ وقتهما بنشاطات معينة.. لكن حين يكونان معاً، يسود الصمت طويلاً حتى يصبح عدوانياً.. وترى ڤاسكو يحدق في الفراغ، وعيناه كئيبتان.

أكملت آبي بطاعة عمياء الاجراءات الرسمية الضرورية للزفاف. وقامت بشراء ما يلزم من الثياب، واختارت الأقمشة الرقيقة والألوان الفاتحة. لكنها اختارت الأشياء العملية، وهي تذكر نفسها بأنها تشتري لأجل عطلة طويلة وليس جهاز عروس..

لقاء عائلة ڤاسكو في ريو محنة كانت على استعداد لتجاوزها بسرور، لكنها محنة محتمّة. استقبلتها عائلة كارڤالو بالترحاب، لكن آبي أحست بارتباكهم، وخيبة أملهم بأن يختار ڤاسكو زوجة من دون جمال أو مال يشفع لها.

كان من الممكن أن يحبوا ديلا على الفور، ويدعموها من كل قلوبهم في سعيها لإعادة ڤاسكو إلى ريو. وبدا جلياً أن أمه بشكل خاص، لم تفهم سبب اختياره أن ينفي نفسه في ريوتشو نيغرو.. وحين رجت السنيورا داكالڤارو آبي أن تستخدم تأثيرها لتجعل ڤاسكو يغير رأيه، بدت ابتسامتها مسمّرة وجاهدة.. على أي حال، كيف يمكن أن تعترف لأم ڤاسكو بأن لا تأثير لها عليه، فتثير قلق المرأة المسكينة؟

وتمتمت السنيورا: «هل يجب أن تعود إلى ذلك المكان قريباً؟ ظننت أنك ستمضي الليل هنا على الأقل».

فقبّل خد أمه وقال: «يجب أن أعود.. لقد أهملت المزرعة مدة طويلة، وأريد أن تشاهد آبيغايل بيتها الجديد».

وفكرت آبي متألمة، أنه يبدو وكأنه يعني ما يقول.

تعالى صوت ڤاسكو في أذني آبي فجأة بلطف وشيء من المرح: «يمكنك أن تفتحي عينيك الآن.. لقد حطت بنا الطائرة».

فقالت بصوت ضعيف: «هذا صحيح».

ساعدها على النزول من الطائرة، فوقفت إلى جانبه تراقب عملية إنزال الحقائب. كانت الشمس قوية، ورائحة العشب الرطب تملأ أنفها وفمها حين تتنفس. ومن مكان قريب، تعالى صياح حاد لطائر مجهول.

التفتت آبي حولها بتوتر، وقد أزعجتها طبقة العرق الخفيفة على جبينها وشفتها العليا. ومدت يدها إلى حقيبة يدها لتأخذ منديلاً ورقياً تجفف به بشرتها. بدأت تحس بعزلة المكان تطبق عليها، لهذا شعرت بالارتياح حين سمعت صوت عربة تتقدم نحوهما، مقاطعة أفكارها.

تقدّمت سيارة جيب مهترئة من على طرف المدرج، وتوقفت. قفز السائق منها، وركض نحوهما، مبتسماً، ثم أمسك بيد ڤاسكو وراح يهزها بعنف وترحيب. كان رجلاً ممتلىء الجسم، يرتدي بنطلون جينز باهت اللون، وقميصاً قديماً.. أما عيناه اللامعتان فعكستا اهتمامه حين استدار نحو آبي.

وقدّمه ڤاسكو إليها: «آبي.. هذا آغنيلو.. المشرف على الغازندا وأنا آسف لأنه لا يتكلم الإنكليزية».

تمكّنت آبي من أن تقول: «بوم ديا».

صافحها الرجل بوقار وقد اتسعت عيناه بدهشة فرحة.

- بوم ديا سنيورا.. كومو ايستا؟

ترجم لها ڤاسكو: «إنه يسألك عن حالك.. وهذا سؤال سيطرح عليك كثيراً.. لذا من الأفضل أن أعلمك الرد. قولي: مويتو بيم.. اوبريغادا».

وأطاعته آبي.. وصافحها أغنيلو مرة أخرى بابتهاج.

أخذ الرجل يتحدث بلغته وهو يرفع الحقائب إلى الجيب. وأصغى إليه ڤاسكو، وهو يهز رأسه بين حين وآخر، وقد عقد حاجبيه، ورفع يده ليفك ربطة عنقه، ثم فتح الزر الأعلى من قميصه وكأن صبره عيل من أناقة

المدينة.

لقد عاد إلى وطنه..

كان الرجلان مستغرقين في الحديث حتى ظنت أنهما نسياها.. وبدأت الطائرة تسير نحو نهاية المدرج استعداداً للإقلاع فأرسل لها بيدرو لازارو تحية مبتسمة.. لوحت له آبي بدورها، وقد شعرت بانقطاع آخر صلة لها بالعالم الذي عرفته.

قال ڤاسكو بشيء من العصبية: «حان وقت ذهابنا.. المسافة بعيدة حتى «الغازاندا»».

وتركته يساعدها على الصعود إلى الجيب ويداه على خصرها النحيل، دونما اكتراث.. قد تستغرق الرحلة أشهراً، ولن تهتم، فكلما طال الوقت، كلما كان أفضل.

حتى الآن، مرت حياتهما الزوجية في سفر، يحيط بهما أناس آخرون، ونادراً ما بقيا وحيدين.. لكن حين سيصلان أخيراً إلى «كازاغراندي» سيتغير كل شيء.. وهذه الحقيقة تثير اضطرابها.

حافظ ڤاسكو على وعده، فلم تتعدَّ علاقتهما القبلات السريعة على يدها وخدها حين يستأذن منها..

لكن بالرغم من كل هذا، أدركت أنهما، في هذه الزاوية النائية من العالم، سيبقيان أكثر في صحبة بعضهما البعض.

إلاّ أنهما لن يبقيا وحيدين، فسيكون هناك الخدم بالطبع. ولقد وضع صوراً لهم في المغلف الذي أعطاها إياه.. حاولت حفظ أسمائهم المكتوبة على ظهر الصور، وهن تبعد فكرة أنّه تكبّد كل هذه المشقة في سبيل إرضاء ديلا، آملاً أن تعتاد على الحياة في ريوتشو نيغرو. ولعل فترة إقامتها في الغازاندا قصيرة، لكن خلال وجودها هناك، ستقوم بما في وسعها لتتصرف كسيدة البيت.

وستعيش حياة اجتماعية محدودة تقتصر على العائلات المجاورة،

www.elromancia.com

كما قال لها ڤاسكو، وسيكون وصولها سبباً لإقامة احتفال.. وسيضطران إلى استقبال الضيوف بدورهما. كان ينظر إليها متسائلاً وهو يقول هذا، وكأنه يسألها بصمت ما إذا كانت قادرة على الوفاء بمثل هذه المتطلبات.. وردت له نظرته بهدوء.

اعتادت في السابق مساعدة زوجة عمها على تنظيم الحفلات ومآدب العشاء، في حين كانت ديلا ترفض دائماً وبإصرار توريط نفسها.. وبدت لها تلك الخبرة الآن على الأقل، في صالحها.

فهي تحتاج إلى النشاط والعمل الشاق كي تملأ أيامها.. وتعمّدت ألاّ تفكّر في مشكلة قضاء لياليها.

كانت الرحلة حارة وغير مريحة.. والطريق عبر الغابة مليئة بالحفر.. وقال لها ڤاسكو ساخراً: «هذه هي سياسة الحكومة.. تحسين المواصلات في الداخل.. حالياً، تتم رحلات السفر والتجارة كلها عبر النهر».

قالت آبي: «يا ليتنا سافرنا عبر النهر.. لقد قرأت عنه.. ويبدو الأمر..».

ترددت.. لأنها كادت تقول «رومانسي» وأبدلت هذه الكلمة بكلمة «مثير».

قال ڤاسكو: «مثير للسياح من دون شك».

وذكّرها بنظرة سريعة أنها كزوجة برازيلي، لا يمكنها أن تعتبر نفسها من السيّاح.

أسكتتها نظرته، ولم يعطها وقتاً لتتكيف مع محيطها الجديد.. وكتمت تنهيدة صغيرة. حسن جداً، حين تنتهي الأشهر الستة، وتصبح حرة مجدداً، ستلعب دور السائحة، وتلقي نظرة مطوّلة على البرازيل قبل أن تغادرها إلى الأبد.

وانطلق الجيب إلى الأمام.. وبدا من الواضح أن اغنيلو مدرّب على

عدم البقاء في الأماكن المعادية. ومع حركة الآلية العنيفة.. بدأت آبي تتساءل عما إذا سلم جزء من جسمها من الرضوض، حين التفت ذراع زوجها حولها فجأة، وشدّتها إلى جانبه بقوة كادت تقطع أنفاسها، ولأكثر من سبب واحد.

نظر اغنيلو إليها نظرة جانبية، وتلفظ بتعليق، سرّها أنها لم تفهمه.. جلست متصلبة بين ذراعي ڤاسكو، تحسّ بدفء جسمه وقوة عضلاته.

حاولت أن تركز على المناظر التي تمرّ أمامها بسرعة.. توقعت غابات كثيفة، ولكن خاب ظنها. كانت الأشجار أطول مما تصورت وأكثر تباعداً، فسمحت لأشعة الشمس بأن تتسلل عبر أوراقها لتنعكس على العشب.

أسرع الجيب مرة أخرى.. وأطبقت الأشجار عليهم وكأنها نفق أخضر مرتفع، ينتظرهم في آخره شعاع شمس متوهج. واشتدت ذراع ڤاسكو حولها بشكل تدريجي، وتمتم شيئاً من بين أنفاسه. بدت لهجته مبتهجة، مما نبّه آبي إلى أنهما يقتربان من نهاية رحلتهما.

وبالرغم من توترها وتعبها، شعرت بشيء من الإثارة في داخلها. ربما هي دخيلة.. زوجة فرضتها الظروف عليه.. لكنها هنا.. إلى جانبه، وعلى وشك أن تستلم مملكتها الجديدة.

كتمت آبي أنفاسها وهم يخرجون إلى الشمس. الصور لم تفِ المنزل وموقعه حقهما. فهو مشيّد على مرتفع صغير، ويبرز من بين بحر من الزهور. رأت مبانٍ أخرى على مسافة منه، لكنها بالكاد نظرت إليها.. وعلى مسافة أبعد، لمحت الماء القاتم اللون.

أبطأ الجيب.. ولاحظت سيارة أخرى متوقفة عند أسفل المرتفع. واستدار اغنيلو إلى ڤاسكو ووجه إليه الكلام، فهزّ ڤاسكو رأسه، وقد خلا وجهه من أيّ تعبير.

نظر إلى آبي ليقول ببرود: «ها هو زائرنا الأول».

فقالت آبي بصوت منخفض: «أوه. . .».

كان لديها ما يكفيها من هموم جديدة، لكن الغرباء في هذه اللحظة وهي تعاني من الحر والغبار، يفوقون طاقتها.

سمحت لڤاسكو أن يساعدها على النزول من الجيب، ووقفت لحظة تحرك عضلات كتفيها بحذر، وهي تنظر إلى السلالم الطويلة، التي تؤدي إلى شرفة ظليلة.

سألها ڤاسكو: «هل ترغبين في أن أحملك؟».

وأجفلت آبي، وزحف احمرار مفاجىء إلى وجهها، وتمتمت: «لا. . أستطيع تدبّر أمري».

هز كتفيه: «ربما. . لكن، أليس من تقاليد بلادكم أن يحمل العريس عروسه ليجتاز عتبة بيتها الجديد؟».

جاهدت لكي تبقي صوتها عادياً: «بلى. لكننا هنا في البرازيل. . وأنا متأكدة من أن التقاليد مختلفة».

عكس وجهه الأسمر السخرية وهو يقول: «أنت على حق على الارجح. . لكن، بما أنني لم أتزوج من قبل، يؤسفني ألاّ أكون خبيراً في هذه المسألة. . أرى أنّ هناك لجنة استقبال تتشكل!».

لحقت آبي نظرته، ورأت ثلاث نساء يقفن على الشرفة، مبتسمات وحانيات الرأس. . كما رأت رجالاً يخرجون من المباني الأخرى، ومن بين الأشجار المحيطة. بدا وكأنهم يميلون، عن غير قصد، للالتقاء عند نقطة واحدة. . الجيب وركابه.

قال ڤاسكو بهدوء: «جاؤوا ليروك. . ابتسمي لهم يا زوجتي ولوحي بيدك».

أطاعته آبي، وهي تشعر بخجل شديد تحت وطأة نظرات هذا العدد الكبير من العيون السوداء المتفحصة. . تكلم ڤاسكو معهم باختصار، لكن الكلمات الوحيدة التي فهمتها كانت «دونا آبيغايل». وحين انهى حديثه

تعالى التصفيق، وازداد احمرار آبي، خاصة حين أسرت يده يدها، وتوجّها معاً إلى شرفة المنزل.

قال بلهجة عفوية: «يجب أن نقيم احتفالاً للعمال وعائلاتهم. . زواج «الپاترو» مناسبة هامة في حياتهم، وبما أننا حرمناهم من الطقوس الدينية، يجب أن نعوّض عليهم بطريقة أخرى».

وافقت بصوت خفيض: «أعتقد هذا».

بوصولهما إلى الشرفة، فتشت آبي في ذاكرتها يائسة عن الصور التي أراها إياها ڤاسكو، محاولة تحديد الأسماء والوجوه، المرأة المسنة السمينة هي الطاهية روزا. لكنها لم تميزّ الفتاتين الصغيرتين بشعرهما الأسود المرفوع.

وقررت أن تخطو الخطوة الأولى فابتسمت وقالت: «بوم ديا آنا».

وتبيّن لها أنها أصابت في تخمينها، إذ ضحكت الفتاة بدهشة وفرح، ويداها تتلويان فوق مريلتها البيضاء. ورأت آبي حاجبي ڤاسكو يرتفعان، وأملت أن يكون قد تأثر. وحين توجهت لتحيي ماريا داس كاراكاس، أحست أنها ذللت عقبة هامة.

وعندما أمسك ڤاسكو ذراعها ليقودها إلى داخل المنزل، سمعت آبي صرخة احتجاج خشنة، فأجفلت إذ ظنّت أنها تغاضت عن شخص ما. . ثم تنبّهت إلى أن ڤاسكو يضحك.

ـ لن أنجو بفعلتي. أقدم لك الغازنديرو الحقيقي يا آبيغايل.

على مجثم متقن الصنع في الزاوية، رأت آبي ببغاء ضخماً ذا ألوان رائعة. . وصاح الطير بخشونة مرة أخرى، ومال برأسه إلى الجانب ليرمقهما بنظرة حاقدة.

ـ هذا دون ألفونسو. .

ومد ڤاسكو يده ليداعب رأس الطائر الكبير بإصبعه.

ـ لقد عاش هنا منذ زمن طويل، ولا يحب أن يتجاهله أحد. . تعرّفي

إليه بروّية، وسيكون صديقاً لك.. عامليه بقسوة، وسيعضك على الأرجح.

أبقت آبي يديها إلى جانبيها وأحنت رأسها بوقار قائلة: «بوم ديا دون ألفونسو».

واكتشفت شيئاً فأضافت: «إنه غير مقيد!».

- لقد قلت لك.. هذا منزله.

وابتسم ابتسامة خفيفة قبل أن يضيف: «لقد أسر وهو صغير، وروّضه الهنود. فيما بعد، أهدوه لابن عمي، الذي اكتشف بعد بضعة أسابيع أن الببغاء يجيب في كل مرة يناديه أحد باسمه، ولم يعد أمامه خيار آخر سوى أن يطلق عليه اسمه.. والآن، من الأفضل أن نذهب ونحيي ضيفنا».

دخلت آبي المنزل، ووجدت نفسها في قاعة ذات أبواب عريضة، ورأت مروحة كبيرة معلّقة في السقف، فنظرت إليها بدهشة.

هز ڤاسكو رأسه وكأنها تلفظت بالسؤال عالياً: «نحن نولّد كهرباء خاصة بنا».

وتقدّم من بابين ضخمين وفتحهما، ثم قال بالإنكليزية: «لويزا.. لطف منك أن تستقبلينا».

وقفت الزائرة وهي تضحك برنّة موسيقية، وردت باللكنة الثقيلة ذاتها.

- وكيف يمكن ألاّ أكون هنا يا عزيزي ڤاسكو؟ فأنا متحرقة للقاء زوجتك.

إذا كان من شيء ينبيء آبي بأن ريوتشو نيغرو لم تكن تلك المنطقة النائية التي توقعتها، فهو مظهر المرأة التي تقف أمامها. كانت متوسطة الطول، يبرز نحولها الفستان الأسود الأنيق الذي ترتديه. ولفتها شعرها الأسود اللماع المعقود بإتقان على مؤخرة عنقها. أما بشرتها فعاجية، وعيناها لوزيتان يزيد الكحل من بروزهما ولمعانهما. افترّت شفتاها

القرمزيتان المنحوتتان بإتقان، عن ابتسامة وهي تأخذ يد آبي.

قالت: «يجب أن تعذري تطفلي سنيورا داكارڤالو. أنا أقرب جارة لك، لويزا غوتزاغا.. في مجتمع متفرق كمجتمعنا، يسعدني أن تعيش امرأة أخرى قريبة مني.. وأردت أن أكون الأولى التي ترّحب بك: سوجا بيم ڤنيدو.. أهلاً بك في البرازيل».

الكلمات، الابتسامة، والسحر... كل هذا أذهلها ووجدت آبي نفسها ترد ضغط أصابع سنيورا غوانزاغا بذهول.. وتتمتم بردّ مناسب.

وتابعت السنيورا: «أنت مرتبكة قليلاً. هل تتكلمين لغتنا.. لا؟ آه، هذه صعوبة، هناك الكثير لتتعلميه في محيط مختلف.. وبوجود وجوه جديدة كثيرة..».

قاطعها ڤاسكو بجفاء: «يبدو أن آبيغايل تتعرف إلى الوجوه الجديدة من دون صعوبة.. لقد أسرت قلوب الخادمات بمعرفتها أسماءهن من دون تشجيع مني».

صفقت السنيورا وقالت: «آه.. هذا ذكاء شديد!».

بدت مبتهجة للأمر، إلاّ أنّ آبي لم يكن لديها فكرة عما أعطاها الانطباع بأنّ مشاعرها الحقيقية مختلفة تماماً عما تظهره. لا بد أن تعب السفر يجعلها تهذي.

وارتسم تعبير آخر على الوجه الجميل.. فضول مفاجيء، وحدّة في العينين.

- قلت إن اسم زوجتك آبيغايل، عزيزي ڤاسكو؟ لكنني ظننت..

وصمتت قبل أن تضيف ببراءة: «.. آه.. لا. بالطبع أنا مخطئة.. والسبب هو ذاكرتي التي برثى لها».

أحست آبي بازدياد حرارتها، ثم ببرودة تامة. من غير المنطقي أن تأمل ألاّ يلاحظ أحد التناقض في الأسماء.. ولم تجرؤ أن تنظر إلى ڤاسكو.

وقال زوجها بنعومة: «لا يدهشني تشويشك يا لويزا.. لقد حدث كل شيء بسرعة، حتى أنني بالكاد أصدق».

فقالت سنيورا غونزاغا بمرح: «قصة حب حقيقية.. أحذرك دونا آبيغايل.. كل الجميلات المحليات على استعداد لاقتلاع عينيك».

وابتسمت ابتسامة ماكرة لڤاسكو: «كان علينا أن نستبقيك هنا أميغو، وألاّ نسمح لك بالسفر إلى أوروبا، لتخسر قلبك».

وطافت عيناها بآبي من رأسها إلى أخمص قدميها. ما جعلها تعي أنّ المرح غاب كلياً عن عينيها، مع أن شفتيها الحمراوين حافظتا على الابتسامة.

ـ كانت مفاجأة لنا جميعاً!

نظرتها، ورنة صوتها، أكّدت لآبي دون أي لغط، أن السنيورا غونزاغا لا تجدها أنيقة أو ظريفة، أو حتى جذابة، بالرغم من ابتسامتها الدائمة. كما أدركت أن من المقصود أن تعرف هذا.

تابعت السنيورا: «إذن.. كيف وجدت بيتك الجديد؟».

لقد عادت إلى عدائيتها مجدداً، وهذا جعل آبي تتساءل عما إذا كانت تتخيل.

تأملت آبي الغرفة الكبيرة وجوّها المريح الهادىء والقديم وأجابت:

ـ لم أر الكثير بعد.

كان الأثاث القديم مصنوعاً من خشب أسود اللون لم تعرف ما هو، والمقاعد والأرائك مغطاة بقماش زهري، تظهر عليه آثار اهتراء خفيفة.

قالت السنيورا: «من الطبيعي أن ترغبي في التغيير. وإذا ما احتجت لمساعدة، فما عليك سوى أن تطلبي، وسيسرني أن أقدم لك العون والنصح... يمكن لهذا البيت أن يكون رائعاً حقاً.. لكنه بحاجة إلى لمسة امرأة منذ زمن بعيد».

كانت آبي متعبة، لكنها تعرف حين يحاول أحدهم التذاكي،

فارتسمت الدهشة على وجهها، وقالت: «وهل جاءت الخادمات لتوّهن إلى هنا؟».

همدت نيران السنيورا قليلاً.

ـ عنيت أن المنزل ينقصه يد سيدة.. عين فنانة.

فقالت آبي باعتدال مخادع: «فهمت. وآمل أن أحقق هذه التوقعات كلها».

نظر ڤاسكو إليها، وضاقت عيناه: «أعتقد أن الرحلة الطويلة أرهقتك كارينا. أرجو أن تعذرينا لويزا، أعتقد أنّ على زوجتي أن تذهب إلى غرفتها لتستريح.. ستتناولين العشاء معنا قريباً، كما آمل؟».

ـ يسعدني ذلك.. لكن يجب أن استضيفكما أولاً.

ومدّت السنيورا يدها: «اديوس دونا آبيغايل. يسرّني أن أعرف أن لديّ صديق آخر في هذا البيت. اعتمدّت كثيراً على ڤاسكو في الأشهر الأخيرة.. وسيحزنني أن يحرمني زواجه من لطفه ودعمه».

بعد ابتسامة أخرى، وهمسة ناعمة، خرجت، مخلّفة وراءها عطراً غالي الثمن، يعبق في الهواء.

قال ڤاسكو متجهماً: «والآن.. هذا مجتمع صغير آبيغايل.. وليس من الحكمة معاداة الجيران. ودونا لويزا تتكلم الإنكليزية، وليست أكبر سناً منك بكثير، وتتمنى أن تصبح صديقتك».

أحست آبي فجأة بتعب شديد: «حقاً؟ حسن جداً، يجب أن آخذ بنصيحتك، لأنني قابلت السيدة لتوي. لكن، تشكّل لديّ انطباع بأن الصداقة التي تتشوق إليها هي صداقتك».

عندها، ردّ بنفاد صبر: «وهذا ليس بالأمر العجيب. فزوجها، جواو، مات فجأة السنة الماضية، قبل حلول موعد جني الكاكاو مباشرة، ومن الطبيعي أن أمد يد المساعدة للجيران الآخرين. ربما أنني الأقرب إليها في السكن، أصبحت لويزا تعتمد عليّ أكثر».

www.elromancia.com

ـ أوه.. أنا آسفة.

وتمنت لو استطاعت أن تقول هذا بصدق أكبر.

ـ هل لديها أولاد؟

هز ڤاسكو رأسه وأجاب: «لقد آل إرث الغازاندا إلى شقيق جواو الأصغر جيروليتو. لكن، لسوء الحظ، ليس لديه أيّ خبرة، فاضطرت لويزا إلى استخدام مدير.. رجل أميركي.. يدير الأملاك إلى أن يتعلم جيروليتو».

قالت ببطء: «لا بد أن هذا الموقف صعب عليه».

ـ فعلاً.. ولقد مررت بالتجربة ذاتها.. لكنني على الأقل كان لدي الجدارة.. والإرادة لأتعلم.

وهز رأسه: «لست واثقاً من أن هذه هي الحياة المناسبة لجيروليتو.. فقبل وفاة أخيه، كان يدرس الهندسة في ساو باولو».

ـ إنه النقيض تماماً.

نظر إليها بسرعة: «لكن هذه مشكلة لا شأن لك بها آبيغايل.. أنا آسف.. أردت أن أشرح لك أمر لويزا وهذا كل شيء... والآن تعالي لتستريحي».

كانت غرف النوم في آخر المنزل، مبنية بمحاذاة شرفة شاسعة. أما الغرفة التي قادها ڤاسكو إليها فكبيرة، والمروحة فيها تدور بلطف في السقف، والنوافذ مغطاة بشبكة تمنع البرغش.. احتل الغرفة سرير كبير بأربع قوائم مرتفعة، وهو قطعة أثاث جميلة، مصنوعة من الخشب الأسود ذاته الذي رأته في غرفة الجلوس، ومزخرفة باتقان. لاحظت على السرير زينة غير تقليدية.. فالوسائد البيضاء الفخمة محاطة بالزهور، فيما وضعت باقات أخرى على الغطاء.

ابتلعت آبي ريقها، وحاولت أن تقول بمرح: «هل هناك نقص في المزهريات؟».

اشتد تجهمّه: «الزهور مبادرة ودّية من الخادمات. سأطلب إزالتها على الفور».

فاحتجت آبي: «أوه.. لا. لا أريد جرح شعورهن.. وهي تبدو جميلة جداً».

وجدت نفسها تنظر إلى السرير كالمنوّمة مغناطيسياً، تستوعب مغزى ترتيب الوسادتين جنباً إلى جنب، بدعوة صريحة.

قال ڤاسكو بلهجة قاسية: «على أي حال، لن تنامي في حديقة. وفي الوقت عينه، سأطلب من آنا أن تحضر السرير في غرفة الملابس».

وقطع الغرفة ليفتح باباً آخر، واستدار إليها وكأنه يتحدّاها.

ـ أترين؟ لا داعي للحذر.. فأنا رجل يحافظ على كلمته.

قالت آبي بتعاسة: «لست حذرة، أعني.. أنني لم أشك..».

قاطعها متشدقاً: «لم تشكّي؟ هذه ثقة كبيرة منك! والآن سأجد آنا، وأتسبب بالإثارة في المنزل».

وأشار إلى باب آخر: «هذا حمامنا كيريدا.. وهذا للأسف، ستشاركيني إياه.. كوني على راحتك في بيتك.. فازڤاڤوز».

عضت آبي شفتها، وارتمت على حافة السرير.. قد يبدو السرير قديم الطراز، لكن الفراش حديث كما تتمناه.

مالت إلى الوراء قليلاً، ثم جلست وهي تصيح مجفلة بعد أن لامست يدها شيئاً صلباً: «ما هذا؟».

ونظرت إليه بارتياب، فرأت قبضة يد بسرى محفورة من الخشب، والباهم موضوع بين السبابة والأوسط.

قال ڤاسكو ساخراً: «مزيد من تمنّي الحظ الطيب. إنه لك آبيغايل، «فيغا» ليحميك من العين الشريرة، ويجلب لك الحظ.. ولا يعطي نتيجة إذا قدّم كهدية.. والد ماريا حفّار خشب مما يفسر مصدره».

صمت.. ثم أضاف بخشونة: «وله رموز أخرى.. لهذا ترك على

السرير لتجديه بنفسك».

قالت آبي بصوت أجش: «أوه».

واجتاحتها موجة حرج حارة.

وافق ساخراً: «أوه بالتأكيد».

ثم توجه إلى الشرفة، ينادي آنا.

بقيت آبي جالسة على حافة السرير، تحتضن «الفيغا» بين يديها، من دون أن تعرف هل تضحك أم تبكي.. فحتى وإن لم تكن الهدية ملائمة، وجدت نفسها ممتنة للطف من قدّمها.. والزهور كذلك. ومدت يدها تلتقط إحدى الورود لترفعها إلى وجهها.

لكن جمالها اقتصر على المنظر وحسب، إذ لم يكن لها أيّ رائحة. وأعادتها إلى مكانها فوق الغطاء.

إنها مزيفة.. مثلي تماماً في هذا البيت.

وأحست بالفيغا الصغيرة دافئة وصلبة، وحقيقية في حجرها.. ولامستها مترددة، ساخرة، وخطر لها أنها سوف تحتاج إلى كل الحظ الممكن إذا أرادت أن تنجو من المآزق التي ستواجهها في الأشهر القادمة.

تنهدت.. فالنوم ليلة بعد ليلة في فراش مصنوع للعشاق، وهي تعرف أن ڤاسكو يرقد على بعد خطوات منها، أعظم المآزق كلها.

***

٥ ـ دعوة أم فخ

استيقظت آبي ببطء، وتمطّت بكسل، فيما غيوم النعاس تنجلي من رأسها. نظرت بتكاسل إلى ساعتها، ثم جلست مذهولة! إنه منتصف النهار تقريباً!

وعادت لتغوص في وسادتها بآهة مكتومة، وفكرت متجهمة: هذا كثير على نواياها الطيبة. لقد وضعت مخططات عديدة ليومها الأول في ريوتشو نيغرو.. سنكتشف بقية أقسام المنزل، وستزور المطبخ، وكانت تأمل أيضاً أن يأخذها ڤاسكو في جولة على الأملاك كي تتعرف على المراحل الأساسية في صناعة الكاكاو.

تم تنفيذ ترتيبات النوم التي أمر بها ڤاسكو حرفياً، لكن آبي لاحظت فيما بعد أن ابتسامات الخدم لم تعد طوعية كما كانت سابقاً.

عروسان جديدان يختاران النوم منفصلين أمر مربك للجميع. ولم تكن آبي تعرف ما إذا قدم لهن ڤاسكو أي توضيح.. لكنها كانت واثقة من أنهن سيعتبرن المسألة تقصيراً منها.

لكنها تحتاج إلى ترك انطباع جيد، بطرق أخرى. فلو ساهمت في إدارة المنزل، بالرغم من حاجز اللغة، واهتمت بذكاء بالعمل في المزرعة، فستتمكن من التعويض عن أنها ليست الفتاة التي يريدها زوجها في فراشه.. أو حياته.

وفيما هي تدفع الغطاء عنها، انفتح الباب قليلاً، وأطلت آنا بفضول.

ردت آنا على أسف آبي الإيمائي لنومها إلى وقت متأخر، بابتسامة مطمئنة. . ثم تقدمت نحو الخزانة الضخمة المحفورة وفتحت بابها.

أحست آبي ليلة أمس، أن آنا تتنقل في الغرفة بهدوء لتفرغ لها حقائبها. . مع هذا، فقد مالت إلى الأمام فاغرة فمها.

فالملابس التي اشترتها، لم تحتل سوى جزءاً بسيطاً من المساحة المتوفرة. . بينما رأت بجانب حقيبتها ثياباً من الحرير والساتان، بالإضافة إلى مجموعة من سراويل الجينز القطنية والقمصان والبلوزات.

اختارت آنا عباءة حريرية عاجية اللون، لا تشبه تلك القطنية البسيطة التي وضعتها آبي في حقيبتها. أمسكتها الفتاة لها، لكن آبي هزت رأسها، وقالت محتجة بقدر ما استطاعت من قوة: «لا. . ليس. . لي».

وأومأت بيديها تحاول افهامها ما تعنيه.

بدت على وجه آنا أمارات التعجب والذهول، وانفجرت في دفق من الهذر المتأثر، تمكّنت آبي أن تفهم منه كلمتي «باتراد» و«ماناوس».

إنها ثياب ديلا. . هذا ما فكرت فيه آبي، وهي تتقدم إلى الخزانة مخدرة الإحساس. لا بد أن ڤاسكو رتّبها كهدية ترحيب بها، ثم نسي أمرها بعد فراقهما. . حسن جداً، إنها لا تريد شيئاً منها. . لعلها أخذت مكان ديلا لكنها لن ترتدي ملابساً اختارتها امرأة غيرها!

اختارت عن عمد ثوباً من ثيابها. . فستاناً بسيطاً أخضر اللون، لا يشبه أبداً الثياب التي حاولت آنا أن تقنعها بارتدائها. . هزت آبي رأسها نفياً، بتصميم بارد، وأشارت وهي تضع الفستان على السرير، إلى أن هذا هو خيارها ولن تتراجع عنه.

استحمت في المغطس الضخم القديم الطراز، وارتدت ملابسها، فهدأت أعصابها. وكانت آنا تنتظر بلهفة في غرفة النوم، تعرض عليها الفطور، لكن آبي رفضت بلطف، واكتفت بالقهوة.

وحيدة، خرجت آبي إلى الشرفة ووقفت تنظر حولها. بدا لها المكان

مهجوراً. . لكن وصولها يوم أمس أظهر لها كم أن هذا المنظر مخادع.

جلست في أحد المقاعد المنجّدة، ثم قفزت مجفلة وهي تسمع صرخة حادة تخرق الصمت.

قالت بصوت مرتفع، بعد أن استعادت وعيها: «ليس مهجوراً أبداً. . أعتذر عن التغاضي عنك دون ألفونسو».

نظر إليها البيغاء الكبير بعدوانية لم يخفها، ثم رفع مخالبه المخيفة يتفحصها.

جاءت روزا حاملة صينية. ورأت آبي باستسلام أنها أرفقت القهوة بالكايك وقطع الپاپايا.

راقبت روزا بلين الأم الحنون آبي وهي تصب القهوة السوداء الذكية الرائحة في الفنجان، وتشربها، ثم تهز رأسها استحساناً قبل أن تختفي مجدداً داخل المنزل. وكانت آبي قد أكلت الپاپايا وأعادت ملء فنجانها حين سمعت صوت محرك.

فكّرت مقطوعة الأنفاس: إنه ڤاسكو. . وارتفعت يدها بتوتر تدفع بشعرها الناعم إلى الوراء. إذن لن تقضي اليوم كله وحيدة. لقد عاد من أجلها، وهذه بداية جيدة، خفق لها قلبها.

لكن الرجل الذي قفز من الشاحنة الصغيرة، وتوجّه نحوها، كان غريباً، طويلاً وأشقر. ابتسم لآبي كاشفاً عن أسنانه البيضاء.

قال: «مرحباً. . أرجو ألاّ أكون متطفلاً، لكنني أبحث عن ڤاسكو».

ردّت آبي الابتسامة بتحفظ: «أنا آبيغايل داكاراڤالو».

واحمرت قليلاً وهي تنطق باسمها الجديد: «أخشى أني لا أعرف مكان زوجي حالياً. . ربما تستطيع الخادمات أن يساعدنك».

ـ ربما يستطعن.

ومد يده، قائلاً: «أنا لينك دالتون، أدير مزرعة كونزاغا بصورة مؤقتة، إلى أن يعرف الوالد أين سيضع قدميه».

ـ أجل.. ذكر لي ڤاسكو هذا.. هل ترغب في الجلوس.

اتسعت ابتسامته.

ـ أرغب في هذا طوال الوقت سيدتي.. طوال الوقت.. هذه الرطوبة ترهقني.. وماذا عنك؟

ورمى بنفسه في كرسي إلى جانبها، ومدّ ساقيه أمامه.

هزت آبي كتفيها وأجابت: «لم يمضِ على وجودي هنا وقت يكفي لأحكم، والأمر ليس سيئاً كما توقعت.. ظننت.. أوه يا للسماء.. لست أدري.. أن الغابة أقرب ومليئة بالحيوانات الغريبة والأفاعي، والحشرات».

أكد لها: «أوه.. هناك الكثير من هذا. لا يمكن أن تحكمي على المكان من هذه الزاوية الصغيرة المتمدنة.. الناس يزرعون المنطقة حول نهر «ليتل بلاك» منذ أجيال، ومن المؤكد أن هذا شكّل فارقاً كبيراً.. ما عليك سوى إبقاء الغابة بعيدة.. لكنك لن تستطيعي إخفاءها تماماً».

تذكرت آبي واجباتها متأخرة: «هل ترغب بشيء من القهوة؟».

ـ ولمَ لا؟ سأنادي روزا لتحضر فنجاناً آخر.

وقف برشاقة واختفى داخل المنزل، ليعود بعد دقائق، وفي يده فنجان وصحن.

ـ تقول الفتيات إن ڤاسكو سيعود للغداء.

ثم نظر إلى السماء وأضاف: «هل تمانعين لو بقيت إلى أن يأتي؟».

ـ بالطبع لا.

وصمتت قليلاً: «لأكون صادقة، أشعر بأنني صماء بكماء. أحتاج لأن أتعلم البرتغالية، وبسرعة!».

ـ دعي ڤاسكو يكتب لك لائحة بالكلمات والجمل الضرورية.

وأخذ القهوة التي قدمتها له، قبل أن يتابع كلامه: «أنا مندهش لأنه لم يفكر بهذا».

ـ أعتقد أنه كان متحمساً للعودة إلى المزرعة.. لقد أمضى وقتاً طويلاً بعيداً عنها مؤخراً.. لذا من الطبيعي أن يكون أكثر انشغالاً من العادة.

نظر لينك إليها متسلياً وقال: «دعينا نواجه الحقيقة.. إنه مدمن على العمل. فلو تزوّجت لتوي لبقيت هنا، أولي عروسي بعض الاهتمام، بدلاً من أن أقف وأحدق في كومة من حبوب الكاكاو!».

شرب شيئاً من قهوته ودفع الفنجان: «كانت قصتكما مفاجئة.. شعرنا كلنا بالسعادة حين قرر قضاء عطلته في أوروبا، إذ كان يرهق نفسه هنا.. لكننا لم نتوقع أن يخطب، فلم نظنه من النوع الذي يتزوج... على الأقل، ليس الآن، لا سيّما بوجود الفتيات الكثيرات هنا.

ـ بما فيهن ربة عملك؟

وخرجت منها الكلمات قبل أن تستطيع إيقافها، وكادت تعض لسانها غيظاً.

بدا أن لينك يفكر في سؤالها جدياً، ثم سأل: «الأرملة السوداء؟ ممكن.. مع أنها تدّعي أن قلبها أصبح في القبر.. لكن، لا بد أن شيئاً ما يستبقيها هنا».

قالت آبي بعجلة: «لم أكن جادة.. إنها فقط.. فاتنة».

وحاولت تغيير الموضوع فسألته: «ما الذي جاء بك إلى البرازيل؟».

مال لينك إلى الوراء وشبك ذراعيه خلف رأسه: «اهتمام بالزراعة في الأساس. كنت أقوم ببحث حول الأمراض الفطرية التي تهاجم الأشجار. وانتهى بي الأمر هنا، إنه مكان جيد».

ـ أظن ذلك.

وكتمت آبي تنهيدة صغيرة.

رمقها بنظرة متكاسلة وقال: «تبدين وكأنك بحاجة للاقتناع.. سأرى ما أستطيع فعله بهذا الصدد. في المرة القادمة حين أذهب إلى البلدة، يمكنني أن اصطحبك معي.. يعرضون أحياناً أفلاماً قديمة في كوخ

www.elromancia.com

صغير . . ما رأيك بفيلم «البعض يحبها ساخنة» مدبلج إلى البرتغالية».

ضحكت عالياً: «يبدو رائعاً! شكراً لك».

ـ نامر امبورت. في الواقع هذا من دواعي سروري.

ومد يده، لكن أصابعه أطبقت هذه المرة بدفء على أصابعها، على عكس المصافحة الرسمية السابقة.

ـ أهلاً بك في ريوتشو نيغرو يا سنيورا.

وابتسمت له آبي بخجل، وهي ترد ضغط يده. وارتاحت بشكل غريب حين عرفت أن هناك صديق محتمل . . ويستطيع التكلم بلغتها أيضاً.

قاطعها صوت ڤاسكو ببرود: «بوم ديا لينك. . هل من خدمة أقدّمها لك؟».

قفزت آبي مجفلة . . لم يكن لديها فكرة من أين جاء . . لكنه ها هو فجأة، على سلم الشرفة، ويداه على وركيه، ينظر إليهما. كان يرتدي بنطلوناً قطنياً كاكي اللون، وقميصاً مماثلاً مفتوحاً حتى الخصر تقريباً . . وملطخاً بالعرق.

ترك لينك يد آبي من دون تسرع، ووقف يقول بعفوية: «مرحباً جئت لأعيد تلك المرشة التي استعرناها منذ مدة . . اعتقدت لويزا أنك قد تحتاج إليها».

قال ڤاسكو بعد صمت: «هذا حسن تقدير منها، هل هذا كل ما تريد».

كان صوته هادئاً، لكن ينقصه الصدق.

وحرك لينك كتفيه بلا مبالاة: «أوه. . فكرت في أن أهنىء العريس على ذوقه الرفيع».

وابتسم: «آبيغايل. . هه؟ اسم قديم لطيف، لفتاة لطيفة قديمة الطراز».

وعبس كأنه في حيرة مفاجئة ثم قال: «ما عدا أنني أذكر اسماً آخر . .

ماذا كان؟ ديلا أو شيء من هذا القبيل؟».

أحست آبي بالبرد، ونظرت متصلبة إلى الفنجانين . . تتساءل عن عدد اللحظات المماثلة التي ستتحملها.

قال ڤاسكو بلطف: «هذا اسم ابنة عم آبيغايل . . لهذا، من السهل أن يحصل التباس».

وافق لينك بسهولة: «إذن، ماذا عن المرشة؟ هل تريدني أن أعطيها لأغنيلو؟».

هز ڤاسكو رأسه: «لو شئت . . إنها قرب سقائف التجفيف».

ـ سأقود السيارة إلى هناك إذن.

وبدأ ينزل السلم، واستدار ليبتسم لهما ابتسامة وداعية: «أعتقد أنكما تريدان البقاء لوحدكما للتمتع بالغداء معاً».

حرك ڤاسكو كتفيه، وأبعد ياقة القميص عن عنقه.

ـ فيما بعد . . سوف أستحم أولاً.

مد يده يسحب آبي من مقعدها، وهو يبتسم لعينيها المذهولتين.

ـ تعالي وسليني كيريدا.

فقال لينك من فوق كتفه: «أيها النذل المحظوظ!».

وبينما كانت آبي تتجه نحو المنزل، تجرها ذراع ڤاسكو الملتفة حول خصرها، سمعت الشاحنة تبتعد. وهما يقتربان من الباب، حررت نفسها.

قالت بغضب: «هل لك أن تخبرني ماذا يجري . . رجاءً؟».

فقال ڤاسكو متجهماً: «ليس هنا . . إذا رغبت في الشجار معي، انتظري إلى أن ندخل غرفتنا، أرجوك».

تراجعت آبي إلى الوراء، والتوتر يجفف فمها: «أنا . . لا أريد الذهاب إلى غرفتي».

لمعت عيناه السوداوان وسألها: «وهل تريدين مني أن أحملك؟ ربما كمشهد رومانسي لإشعال قلوب الخادمات؟».

www.elromancia.com

نظرت إليه متمردة: «لا . . أستطيع السير».

فقال باختصار: «سيري إذن».

سارت أمامه، وذقنها مرفوعة تحدياً. حين أصبحا وحيدين، واجهته ببرودة كانت أبعد من أن تشعر بها.

ـ هل تلعب لعبة ما؟

أقفل الباب وأجاب: «أمر غريب . . كنت على وشك طرح السؤال ذاته عليك».

كان يبتسم قليلاً، لكن من دون مرح في عينيه: «أعترف أنني لم أكن أتوقع أن أجدك في أول يوم لك هنا، تستقبلين غريباً، بل وتسمحين له بالتصرّف معك بإلفة».

احتجت بحرارة: «لم أكن أفعل شيئاً من هذا!».

ـ وهل تعتبرين السماح له بإمساك يدك نوعاً من الاحترام ربما؟ يجب أن أقول لك مينا أسبوسا، إنك مخطئة . . لكن، كان عليّ أن أتوقع مثل هذا التصرف منك.

أحرق الاحمرار خدّي آبي الشاحبين. وقالت مصدومة: «كيف تجرؤ! أوه يا الله . . كيف تجرؤ؟ أنت تعرف جيداً . . ».

وصمتت لتتمالك نفسها. وحين استطاعت السيطرة على صوتها قالت: «لقد جاء السيد دالتون لرؤيتك، وعرضت عليه القهوة لأنني اعتقدت أن هذا ما تريد أن أفعله . . كان لطيفاً وودوداً، ورأى أنني أشعر . . بالغربة . . وكنت ممتنة له . . وهذا كل شيء».

لم يلن في تصرفه وقال: «إذن، أنت تظهرين امتنانك بشكل فاضح. وبصفتك زوجتي، يجب أن تكوني أكثر تكتماً».

وتكوّر فمه قليلاً قبل أن يضيف: «بالنسبة إلى فتاة تدّعي أنها مغرمة جداً، تبدين على استعداد لإيجاد السلوى».

أحست آبي وكأن أنفاسها قد انقطعت . . وحدقت به من دون أن تنطق

بأيّ كلمة، وعيناها المعذبتان متسائلتان، لا تتمنيان سوى أن تنشّق الأرض لتبتلعها.

سأل بسخرية وهو يهز رأسه: «وهل ظننت أنني لا أعرف؟ للأسف كارينا . . لا . كانت ابنة عمك صريحة جداً».

لقد أوصل ديلا إلى سيارتها. وتذكرت آبي أنها سمعت صوتها المرتفع الباكي . . وبالرغم من كربها، انتقمت، وفضحت سر آبي.

فأجابت: «أنا آسفة . . لم أشأ أبداً أن تعرف . . ».

تنهد متوتراً، ومرر يده في شعره الأسود: «أدرك هذا . . وأنا لم أقصد أن أقول لك . . ».

وتوقّف فجأة ثم علّق: «ديوس . . يا لهذه الورطة!».

فقالت آبي بصوت ضعيف: «أجل».

كان عليها أن تتوقع ما ستفعله ديلا . . فهذا ما هددت به بالضبط . . وأجبرت نفسها على الكلام مجدداً: «أرجوك صدّقني . . لن يشكّل هذا فرقاً . . . لقد عقدنا صفقة، وسألتزم بها».

وصمتت تعض شفتها.

ـ يجب ألاّ يسبب لك هذا أيّ إحراج . . أقسم . .

فقال بصوت قاطع جعلها تجفل: «الإحراج ليس الكلمة التي يمكن أن أختارها».

ولانت لهجته حين أضاف: «أنت ساذجة آبيغايل، إذا ظننت أن هذا لا يشكّل فرقاً . . لماذا وضعت هذه الشروط المشددة لزواجنا برأيك؟ حاولت أن أظهر نوعاً من التقدير . . أن أخفف عنك . . لكنني أتساءل الآن ما إذا كنت على حق».

وأمسكت يده ذقنها وجعلها تنظر إليه. تفرس في وجهها للحظة طويلة، ثم تركها، وارتفعت يده إلى أزرار قميصه وقال بنعومة: «هل ننهي هذه المهزلة كارينا؟ هل نقلب الادعاء إلى حقيقة؟».

وخلع قميصه ورماه إلى السرير.

- هل نستحم معاً، ونرى إلى أين سيوصلنا هذا؟

كانت آبي تعرف تماماً إلى أين سيصلان... إلى الفراش.. وإلى سعادة هي أبعد بكثير من أحلامها الأكثر جنوناً.. بين ذراعي الرجل الذي تحب. للحظة، كادت الفكرة تغويها، ثم تذكرت أن قاسكو لا يبادلها مشاعرها.

سألت بصوت شبه مخنوق: «من دون حب؟».

توتر الوجه الأسمر وهو يكمل خلع ملابسه: «وهل هذا ضروري حقاً؟ لو سمحت لي آبيغايل.. أظنني أستطيع أن أمنحك السعادة».

سألت بمرارة: «لأنك تشعر بالأسى علي؟ شكراً.. لكن لا.. شكراً. الشفقة ليست دافعاً كافياً بالنسبة إليّ».

سأل بخشونة: «أولا تشفقين عليّ؟».

تقدم نحوها خطوتين، وشدّها بعنف بين ذراعيه.

واضطرت إلى بذل جهد جبار لتحافظ على موقف سلبي حين عانقها... أرادت أن تتجاوب مع لمسته الحارة ودفء جسمه الذي يحرقها من فوق قماش الفستان الرقيق.. ورائحة عرقه الحادة التي تملأ فمها وأنفها.

أخيراً رفع رأسه وهمس: «لمَ لا كيريدا؟».

حاولت جاهدة تحرير نفسها: «لأنني لا أنتمي إلى هنا، وما خلقنا لبعضنا البعض».

وارتفعت يده تداعب بشرتها، فدفعتها آبي: «لا! لقد انهمتني بأنني سمحت لديلا بأن تستغلني.. ألا تستغلني أنت أيضاً؟ لكن بطريقة مختلفة؟».

تركها وقد ارتسم على وجهه تعبير غريب، وأجاب: «اعتقد أننا استغلينا بعضنا».

ردت بعنف وهي تتألم مع اختيار كلماتها: «مسألة توافق مشترك؟ لا شكراً لك! لا أريد أمراً آخر أندم عليه حين أخرج من هنا بعد ستة أشهر».

ابتسم قاسكو من دون مرح: «أنت واثقة جداً من أنك ستغادرين. ربما عليّ أن أتأكد من أنك ستبقين.. إنجاب طفل كل سنة سيبقيك مطيعة تحت سقف منزلي.. ألا تظنين هذا؟».

حرقت دموع مفاجئة عينيها، وقالت: «هذا.. ليس مضحكاً».

- لست أمزح لقد عملت جاهداً في السنوات الماضية لأحوّل هذه المزرعة إلى مؤسسة منتجة، ولهذا السبب أستطيع تحمل نوع الحياة التي أريدها.. مينا أسبوسا. أتعرفين ماذا أرى لنفسي.. زوجة.. كيريدا، أولاد، وحياة عائلة عادية.

وضحك ضحكة ساخرة، قبل أن يضيف:

- وعلى ماذا حصلت؟ صفقة فارغة.. اتفاق لنصف سنة.. يقود إلى.. لا شيء.

وأحرقتها نظرته، ثم استدار مبتعداً.

- والآن، أخرجي من هنا.. وإن كنت حكيمة، فلا تدعيني أجدك مرة أخرى تعبثين مع لينك دالتون، أو أي من جيراني. لن يتمتع رجل آخر بما أنا محروم منه كوميريندي!

فقالت آبي بغموض: «مفهوم».

وخرجت بسرعة.

مع مرور الأيام في ريوتشو نيغرو، وجدت آبي الوقت يتزايد ثقلاً. كان هناك نوع من الهدنة المؤقتة بينها وبين قاسكو، حين تراه، فهو غالباً ما يخرج إلى عمله قبل أن تستيقظ، ولا يعود قبل المساء. وأدركت أنه يتعمد ذلك نظراً لحيرة الخدم الواضحة.

وحين ينضم إليها على العشاء، كان يعاملها بأدب شديد.. لكنها لا تستطيع إنكار وجود فترات صمت مطوّلة بينهما.. ومن الطبيعي ألاّ يناقشا

المواضيع الشخصية، فهذا أمر محرم، وهي لا تعرف ما يكفي عن عمله لتطرح أسئلة ذكية عن المحصول وتقدم العمل.. كما تخلت عن نيتها في أن تطلب منه أن يجول بها على الأملاك.. وترددت في التجول لوحدها لتجمع ما تستطيع من معلومات، لئلا تصادفه.

لذلك، وجدت نفسها تخلد إلى الفراش في وقت مبكر كل ليلة، وتنهض متأخرة كل صباح.. مع أنّ هذا الخمول المتعمد غريب عن طبيعتها. صحيح أنها لم تبنِ آمالاً كبيرة على نوع الحياة التي ستعيشها في ريوتشو نيغرو، لكنها لم تتوقع مثل هذه العزلة وعدم الجدوى.

لقد غامرت مرة بالدخول، في غياب ڤاسكو، إلى غرفة مكتبه، وتساءلت عما إذا كان هناك أي أعمال طباعة يمكنها أن تقوم بها، لتثبت وجودها في الغازيندا.. لكن، بعد ساعتين من تأمل السجلات والملفات، ودراسة الملصقات والبيانات على الجدران، اضطرت إلى الاعتراف بالهزيمة. فقد بدا منظماً جيداً ولا يحتاج لمساعدتها.

أمامها أشهر طويلة من الفراغ.. فكيف ستتحملها؟

وفي صباح أحد الأيام، وفيما كانت تحاول التركيز على إحدى القصص التي حملتها معها، أطلّت آنا من الباب لتشير إلى أن سنيورا غونزاغا قد وصلت.

وقفت آبي على مضض، متمنية لو تشعر بحماس أكبر لهذه الزيارة. ولو اختارت زيّاً أكثر أناقة من هذه التنورة البسيطة والقميص القطني الأبيض، المربوط عند خصرها.

كانت تعي أنّ تفاصيل مظهرها البسيط كلها لم تخفَ على لويزا، التي دخلت مبتسمة إلى الغرفة.

حيّت مضيفتها: «بوم ديا.. أرجو ألاّ أكون متطفلة، أعرف مدى انشغال المرأة حين تكون ربة مزرعة».

وكأنها لم تكن تعرف أن آبي تقضي يومها في التكاسل.

ردّت آبي بابتسامة خفيفة، واستدارت إلى آنا الواقفة هناك، وطلبت منها بتلعثم أن تحمل إليهما القهوة.

جلست لويزا في مقعد، ووضعت ساقاً فوق الأخرى.

- قليل من الممارسة، وسرعان ما تتعلمين لغتنا.

كانت ترتدي بذلة رائعة التفصيل.. ولمعان حذائها الطويل الساق يكاد يخجل أيّ مرآة.

وأكملت: «إذن.. كيف تشعرين؟ لا داعي للسؤال طبعاً عمّا إذا كانت الحياة الزوجية تناسبك.. تبدين مشرقة».

كانت كلماتها رياء جلياً بحيث كادت آبي تضحك عالياً.

- ڤاسكو ليس هنا؟

كان السؤال عفوياً، لكنه لم يخدع آبي، فهزت كتفيها قليلاً: «إنه في مكان ما من المزرعة.. هل أردت التحدث إليه حول موضوع ما؟ ربما أستطيع أن أمرر له رسالة».

ضحكت لويزا بخفة.

- أوه لا، دونا آبيغايل، رسالتي هي لك.. يدهشني ألاّ أرى ڤاسكو إلى جانبك وأنتما متزوجان حديثاً.. أرجو ألاّ يكون يهملك.

تفحصت آبي أحد أظافرها وقالت بصوت يخلو من أي تعبير:

- أبداً.. الزواج حديثاً لا يتطلب قضاء كل دقيقة معاً.. فكلانا يقدّر استقلاليته.

- يبدو أنك تدافعين عن استقلاليتك إلى أقصى مدى.

كانت لويزا لا تزال تبتسم، لكن حدّة لاسعة ظهرت في كلماتها:

- يجب أن تفهمي دونا آبيغايل، أن الخدم يتناقلون الشائعات بشكل مزعج.. وطباختكم ابنة عم إحدى خادماتي. وتكاد حياة الواحد منا الخاصة تكون علنية.

ابتلعت آبي ريقها، فقد فهمت ما تلمح إليه لويزا.. وما من شك أن

أخبار عدم مشاركتها فراش ڤاسكو هي حديث الساعة، في هذا المكان النائي. وتمكّنت من إبقاء صوتها سوياً وهي تجيب: «إذن.. من حسن حظنا أن ليس لدينا ما نخفيه».

وشعرت بالامتنان حين عادت آنا حاملة صينية القهوة، مما أعطاها الوقت الكافي لتهدأ، بينما أبدت لويزا بعض الملاحظات عن الطقس، ومستوى الرطوبة.

وبعد أن صبّت آبي القهوة، وأصبحتا وحيدتين مجدداً، كانت لويزا، على ما يبدو، قد قررت ألاّ تتطرق إلى الموضوع أكثر. ولم يكن من داع لذلك، فمجرد اعلام آبي أنها تعرف، يكفي.. لكن، هل هذه هي الرسالة التي ذكرتها، أم أنّ هناك المزيد؟

وبدا أن هناك رسالة أخرى.. فلويزا تخطط لحفلة في وقت ما من الأسبوع التالي..

قالت وهي تحتسي القهوة: «أرجو أن تغفري لي هذه الدعوة المفاجئة وغير الرسمية. فالقرار وليد اللحظة، كما تقولون.. وهذا النوع من الحفلات غالباً ما يكون الأكثر متعة.. ألا تجدينه كذلك؟».

كانت آبي قادرة على التفكير بعدد من القرارات المتهوّرة التي اتخذتها، والتي تندم عليها الآن بمرارة.. لكنها ابتسمت وتمتمت برد مناسب.

وتابعت لويزا: «إذن، ستتمكنين أنت وڤاسكو من الحضور؟ أليس لديكما خطط أخرى لتلك الأمسية؟».

خطط أخرى؟ تساءلت آبي بذهول. هل لويزا مجنونة؟ إنها تتكلم وكأن المسارح والنوادي الليلية، والمطاعم، لا تبعد سوى خطوات.

كان بإمكانها أن تقول: بلى.. فأنا أخطط للجلوس وعدّ الدقائق إلى أن أستطيع الاستئذان بلباقة، لأذهب إلى غرفتي، كما أفعل كل ليلة.

لكن، بدلاً من هذا، قالت: «لا.. ستكون حفلة رائعة.. وسيسرّنا

أن نلبي الدعوة».

ـ هذا جيد.

ووضعت لويزا فنجانها فوق الصينية، وهي تبتسم برضى.

ـ لن يستطيع ڤاسكو الاحتفاظ بك لنفسه إلى الأبد.. لقد حان الوقت للقاء بعض الناس. حين كان زوجي على قيد الحياة كانت الحفلات في «الأراكوكا» مشهورة.. أؤكد لك.

وهزت كتفيها ثم أضافت: «لقد سمحت... أن يجعلني كسولة قليلاً، لذا، من الجيد أن أجد عذراً للاحتفال».

وبعد خروج لويزا أخيراً، فكرت آبي أن هذا الأمر جيد لها أيضاً، فعلى الأرجح ستكون حفلة صغيرة.. لأن السكان في هذه البراري قلائل... ستكون مناسبة تتطلع إليها، بالرغم من شكوكها حول نوايا لويزا.. مناسبة تخرجها من من هذا التكاسل الذي تعيشه هذه الأيام.

وقفت مصممة على البحث عن ڤاسكو لتبلغه دعوة لويزا. أخيراً، لديها عذر حقيقي، لتستكشف المزرعة.

نزلت السلالم، بعد أن حيّت دون ألفونسو الذي كان يسوي ريشه بمنقاره بمزاج نكد. واتجهت نحو المباني التي تعرف أنها سقائف التجفيف.. مع أنها لا تستخدم حالياً.

كان الطقس شديد الحرارة، والشمس تسطع بقوة.. وترددت لحظة.. متسائلة عما إذا كان عليها أن تعتمر قبعة، ثم هزت كتفيها.. فسرعان ما ستصبح تحت ظلال الأشجار.

مرّت بصف من البيوت ذات سطوح من أوراق الشجر العريض والكثيف. وكان الأولاد يلعبون بين نيران الطبخ وحبال الغسيل، والنساء مصطفات عند مداخل الأبواب الظليلة.

بدت النساء مجفلات لرؤيتها، وسمعت الأصوات ترتفع مهمهمة.

لكنها شعرت أنّ النسوة مستاءات من ظهورها غير المتوقع أكثر من

كونهن متأثرات. ولحق بها عدد منهن، يتحدّث ويلوّح بلهفة.. وأمسكت إحداهن بذراعها تشير بيدها إلى المنزل، وكأنما تحذّرها لتعود.

حررت آبي نفسها بأدب.. لعلهن يظنن أنها ضائعة.. وقالت ببطء ووضوح: «سنيور دون ڤاسكو».

وأشارت إلى أنها تبحث عنه.

لكن هذا لم يسكن قلقهن أبداً.. وازداد العبوس، ووجدت آبي نفسها تعاد باحترام وثبات نحو المنزل. فكّرت بجدية.. يا الله.. هل هناك اعتقاد ما يحرّم زيارة النساء إلى المزرعة؟ هل هذه لعنة، كما على متن السفن؟ حسن جداً.. أنا لا أؤمن بمثل هذه السخافات.

رفعت كتفيها.. وتابعت طريقها بتصميم لا يلين، إلى أن ابتعدت عنهن. وبعد أمتار قليلة، وجدت نفسها تحت ظل الأشجار.

***

٦ ـ الحقيقة المرّة

فجأة أصبحت آبي في عالم آخر. وأحاطت بها جدران من النباتات الخضراء والظلال، وساد السكون الشديد في المكان.

توقفت آبي لتلتقط أنفاسها. وكان لديها انطباع يثير الأعصاب بأن الغابة تحبس أنفاسها أيضاً، وأن عيوناً خفية تنتظرها لتتحرك.

وأحست برغبة قوية في أن تركض عائدة إلى ملاذ الغازندا.

حمقاء! وبّخت نفسها بصمت. غبية! وسارت إلى الأمام، وقد أدركت أنها ليست محاطة ببرية موحشة على أي حال.. إنها في «ممر» ظليل، نظف من الأعشاب الضارة المتنامية.. وحيث الشجيرات الشائكة مزروعة تحت حماية أشجار أكثر ارتفاعاً. وغاصت قدماها وهي تتقدم، في سجادة من أوراق الشجر المهترئة والقشور.

وظهر أمامها ممر آخر، فسلكته آبي بحذر، وهي تصغي بحثاً عن أيّ صوت بشري. لكن الصمت استمر.. واستدارت إلى اليمين، تندفع إلى عمق المزرعة، وتلتفت بين الحين والآخر إلى الوراء. لقد قطعت مسافة طويلة، مع أن الممرات التي اجتازتها تعدّ على يد واحدة. إلا أنها لا تزال واثقة تماماً من أنها ستجد طريق العودة إلى الغازندا.

ربما لن تجد طريقها.. ربما ستدور في حلقة مفرغة إلى أن تنضّم عظامها إلى هذا الممر الرطب من الأوراق واللحاء الذي تسير فوقه.

ولسوف ترى شجيرات الكاكاو بأوراقها المروحية الغريبة الشكل في

www.liilas-romancia.com

أحلامها. . كانت الأشجار في هذه المنطقة من المزرعة أكثر طولاً وقوة، لكنها لا تبدو مثمرة. . ولا يعني هذا أنها ستتعرف على حبة الكاكاو في حالتها الطبيعية، إن وقعت واحدة منها على رأسها. وأحست بالمرارة.

راحت تتمنى لو أنها أصغت لصوت المنطق وبقيت مع النساء الأخريات، اللواتي ينتظرن رجالهن، وتنهدت. . إلاّ أن ڤاسكو ليس رجلها. ولن يكون أبداً. . في الواقع، لن يحزن عليها أحد، إن لم تخرج أبداً من هذه الأدغال.

ووقفت في مكانها، وقد أفزعها انجراف أفكارها.

ووبخت نفسها: «. . هيا الآن. . ما بالك؟».

ويدا لها أن طاقتها بدأت تضعف. . وأحست بتكاسل غريب يعاودها مرة أخرى، وهذا ما لا تحتاجه الآن.

بدأت تسير بحدة أكبر، وهي ترفع ذقنها وتطلق صفيراً متحدّياً. . كان صفيرها من دون نغم، لكنه أفضل من الصمت.

صممت على استجماع شجاعتها حتى أنها لم تلاحظ الرجل الذي خرج من بين الأشجار وكادت تصطدم به.

كان رجلاً غير حليق يحمل منجلاً، فتحول صفير آبي إلى صيحة مخنوقة، ثم أدركت أن رؤيتها أجفلته أيضاً، فتماسكت بصلابة.

قالت بوضوح: «أو باتراو؟».

نظر إليها هازاً رأسه، ثم انفجر في هذر مهتاج لم تفهم آبي أيّ كلمة منه. بعد ذلك، دس المنجل في حزامه، وتقدم نحوها.

هذه المرة لم تعد صيحتها مكتومة، بل خرجت بأقصى مدى حين لوت كاحلها عند تراجعها.

وكأنها بهذه الصيحة قد أعطت إشارة ما، فخرج الرجال من كل جانب، والتفوا حولها وهي تقع على العشب المتعفن، ويدها تمسك كاحلها. ومن بين الرجال، لمحت وجه آغنيلو المذعور وهو يصرخ:

ـ سنيورا دونا آبيغايل؟

وكان صوته أشبه بالعويل وهو يشق طريقه ليصل إليها.

حاولت آبي أن تطمئنه، لكن صوتها رفض الخروج من صدرها. تحركت شفتاها لكن من دون صوت. وتفرّقت دائرة الرجال الملتفين حولها مع وصول ڤاسكو، الذي ارتسم على وجهه مزيج من عدم التصديق والغضب، وهو ينظر إليها.

سأل بصوت غاضب: «ماذا تفعلين هنا؟ بحق الله آبيغايل. . هل أنت مجنونة، أم أن هناك تفسير ما؟».

ـ كنت أبحث عنك.

وبدا هذا التفسير تافهاً مثلها وهو يرفعها بخشونة لتقف على قدميها.

وأخذت تقفز على قدم واحدة، وتتفحص الأخرى المتألمة بحذر.

قال ڤاسكو شيئاً هادئاً وحاداً بلغته. وكان المتفرجون قد بدأوا يبتعدون بصمت، حتى لم يبقَ منهم سوى آغنيلو، الذي رحل إثر أمر من ڤاسكو، بحيث أصبحا وحيدين.

كانت تعي أنّ كاحلها الملتوي يؤلمها لكنها رفعت ذقنها وقالت:

ـ أفهم سبب كل هذه الضجة. . هل هذه منطقة محرمة؟

ـ الضجيج يتعلق بثيابك.

وأشار ڤاسكو بازدراء إلى التنورة القصيرة والسافين النحيلين.

ـ ثيابك. . أو قلّتها.

أجفلت آبي إذ قد يظن الجميع أنها غير محتشمة، وقالت بغضب:

ـ وما عيب ملابسي؟

ـ لا شيء. . لكن للتنزه في حديقة إنكليزية. إنما المزرعة للأسف، ليست من الأماكن الآمنة آبيغايل. . وظننت أنك تعرفين ذلك. هنا جزء من الأدغال. . ومخلوقات الأدغال لا تزال تسكنها. . الأفاعي كيريدا، والحشرات، ذات اللسعة السامة. وإذا رغبت في التنزه هنا، فارتدي

بنطلوناً وحذاء عالي الساقين.. وإلا فابقي في المنزل.

ارتجف صوتها حين أجابت: «حسن جداً، بما أنني لا أملك حذاء عالي الساقين. أعتقد أن هذا هو الخيار الوحيد المتبقي لي».

نظر إليها بنفاد صبر: «لو تفحصت خزانتك لعرفت أن لديك أزواج عدة من الأحذية العالية الساقين. لكنك تبدين مصممة على أن تكتفي بما حملت في الحقيبة التي جئت بها».

نظرت إليه متحدية: «وهل هذا أمر عجيب؟ أم تظن حقاً أنني أرغب في أن أرتدي ملابس امرأة أخرى؟».

قطب حاجبيه بحدة، ورمقها بنظرة باتت تخشاها: «ماذا تقولين؟».

- أقول، إنني لن أرتدي ملابس ديلا أو أنتعل أحذيتها، فعدا عن الأخلاقيات.. إنها لا تناسبني.

ساد صمت شرير، ثم قال ڤاسكو بلطف شديد: «وهل تعتقدين حقاً أنني قد أهينك هكذا؟ يا إلهي آبيغايل.. كيف تجرؤين على مثل هذا الاتهام! لو أنك أزعجت نفسك ونظرت إلى الثياب، لرأيت أنها كلها تناسبك.. وتأكدت من هذا وأنا في لندن.. وإذا كان لديك اعتراض على الأقمشة، أو التفصيل، لفهمت هذا. لكن، أن تفترضي من دون دليل أنني أتوقع منك أن تقبلي هدية اشتريتها لديلا.. هذا أصعب من أن أصدقه!».

فغرت آبي فمها بشهقة صامتة: «أنت.. اشتريتها.. لي؟ لكن، كيف تمكنت من هذا؟».

فرد بصوت متجهم: «لم يكن الأمر صعباً.. زوجة صديق لي تملك محلاً في ماناوس.. اتصلت بها وأعطيتها لائحة بما تحتاجين إليه ووصفت لها لون بشرتك وشعرك. وحين لم ترتدي أيّ قطعة أرسلتها أليسا، افترضت أن خيارها لم يعجبك، ولم يخطر في بالي أن هناك سبب آخر».

عضت آبي شفتها: «إذن.. أنا آسفة لسوء الفهم. لكنني مازلت

أفضل ألاّ أرتديها.. يبدو هذا.. كالإحسان».

ردد ڤاسكو غير مصدق: «إحسان؟ أنت زوجتي آبيغايل، فكيف يمكن أن يكون ذلك إحساناً؟».

صمت وحاجباه السوداوان مرفوعان: «أم أنك خائفة؟ فإذا سمحت لي بإلباسك، تعتبرين أنه من المتوقع أن تسمحي لي بخلع ملابسك؟».

حرق الاحمرار وجهها وردّت: «هذا لم يخطر في بالي أبداً».

رمقها بنظرة باردة ساخرة: «إذن.. ربما يجب أن يحصل هذا.. أم أنك تظنين أنني سأكتفي بحياتنا هذه وإلى الأبد؟».

قالت متصلبة: «ستة أشهر بالكاد تكون إلى الأبد».

فرد بجفاء: «أنت واثقة جداً من هذا الموعد المحدد».

بدا لها مستحيلاً أن تقف وسط الأمازون لتناقش هذه المسألة مع رجل لا يزال غريباً بالنسبة لها.

وفكرت بتعاسة أنها اليوم غريبة عنه أكثر مما كانت عليه أثناء خطبته لديلا. على الأقل، يومها، كانت تشارك في الحديث من دون ارتباك وحرج، واثقة من أن حبها له سرها وحدها.

أما الآن، فقد أبعدتهما الظروف، وخلقت بينهما هوة لا يمكن سدّها.

قال: «إذن.. أنت لم تسعِ إليّ لتقولي لي إنك ستصبحين حرة وإلى الأبد.. فماذا أردت؟».

ارتفعت يد آبي إلى فمها: «أوه! سنيورا غونزاغا زارتنا لتدعونا لحضور حفلة في الأسبوع القادم.. مساء الأربعاء، ولقد قبلت الدعوة... وآمل أن أكون محقة».

قال ڤاسكو مفكراً: «يوم الأربعاء.. فهمت. حسن جداً، لمَ لا كارينا؟ الدعوات الاجتماعية قليلة في هذه الناحية من العالم. ولقد حان

الوقت لتري بعض الوجوه الجديدة».

وفكرت: لو كنت تحبني، لما احتجت إلى حفلات، أو أي نوع من أنواع النشاط الاجتماعي، وسأكون راضية بحبك وحده.

لكن لا بد أن ڤاسكو يصلي بألاّ تحكم عليه لحظات طيش وتهوّر بالعيش المؤبد مع امرأة لا يريدها.

ولمَ أصلي أنا؟ لا أعتقد أنني أعرف.. فلو اضطررت للبقاء معه، سوف أدمر.. لكن إن تركته، كيف يمكن أن أعيش وأنا أعرف أنني لن أراه مجدداً؟

قال ڤاسكو: «اكتبي بطاقة موافقة صغيرة للويزا، وسأتأكد من أن تصلها».

ونظر إلى الأسفل وسألها: «كيف حال قدمك؟».

لم يكن ألم قدمها ليستحق المقارنة مع الألم الأعمق والأخطر في داخلها.. وقالت: «أعتقد أنها أفضل حالاً، شكراً لك. سأعود الآن».

ـ لا.. ستعودين في الجيب. ولقد أرسلت آغنيلو لإحضاره.. أنا أعني ما أقول آبيغايل. لن تسيري في المزرعة من دون ارتداء ملابس مناسبة.

فقالت بصوت أجش: «كنت بحاجة إلى الحماية من رجالك، فهم يحملون تلك السكاكين الشريرة».

لكنه أجاب: «ما كان لأحدهم أن يؤذي شعرة من رأسك، إنهم يحملون السكاكين لأننا بدأنا حصاد منتصف السنة اليوم».

التفتت آبي حولها: «أوه.. لا يبدو أن هناك حصاد كبير».

نشرح لها بصبر: «هذه أشجار صغيرة.. ولا نتوقع الكثير في السنوات الأولى من نضوجها. في القسم الذي نعمل فيه، الأمر مختلف تماماً، إنه محصول جيد، والحصاد الرئيسي سيكون أفضل».

ـ لا عجب أن المكان هنا يعجبك، إنها حياة هادئة تماماً.. أليس

كذلك؟

ـ أتظنين ذلك؟ لا تنخدعي كبريدا.. فحبة الكاكاو من أكثر المحاصيل عرضة للخطر في العالم. كتب كثيرة تناولت الآفات التي تهاجمها.. والأمراض التي تفتك بها.. وتربية الشجيرات حتى المحصول مغامرة دائمة. ولقد نلت حصتي من الكوارث منذ جئت إلى ريوتشو نيغرو.

وفكرت في أن هذا الزواج كارثة أخرى عليه أن يتحمّلها.. وقالت بصوت غير مسموع تقريباً: «أنا آسفة».

عبس، وكأنه أحس باتجاه أفكارها، وقال: «آبيغايل..».

لكنه صمت حين تناهى إليهما صوت سيارة، وتمتم لاعناً، ثم قال:

ـ في آخر هذا الممر طريق نستخدمها للعودة إلى الغازندا.. فهل يمكن أن تسيري إلى ذلك المكان، أم أساعدك؟

ـ أستطيع تدبّر أمري.

ولم يكن كاحلها يؤلمها كثيراً، لكنها تفضل أن تزحف على ركبتيها فوق زجاج مكسور بدلاً من أن تختبر الجنة المريرة بين ذراعيه، أو ضرورة الاعتماد على مساعدته.

وقالت برزانة: «أنا آسفة لمقاطعتي عملك، والتسبب بمثل هذا الاضطراب، ولن يحدث ذلك مرة أخرى».

ابتسامته كانت قصيرة وباردة.

ـ ليس بالطريقة ذاتها على أي حال، كان ما..

وصمت: «لكن إذا رغبت في تعلم شيء عن المزرعة.. إذن..».

هزّت آبي رأسها وردت: «لا أعتقد هذا.. فالأمر لا يستحق العناء وأنا سأقيم هنا لوقت قصير».

وبدأت بالسير في الاتجاه الذي أشار إليه حيث ينتظرها آغنيلو بالسيارة، ووجدت نفسها تتساءل عما إذا كان ڤاسكو يراقبها.

www.elromancia.com

قالت لنفسها: لا تنظري إلى الوراء.. لا تلتفتي. لكنها حين وصلت إلى الطريق، لم تستطع مقاومة رغبتها في إلقاء نظرة من فوق كتفها.

كان الممر مهجوراً.. ولم يبق فيه سوى الصمت.

***

تأملت آبي الفستان.. مطولاً.

المشكلة أنه جميل جداً.. بل أجمل ما لديها، فهل ترتديه؟ ما زالت غير موافقة على مبدأ أن يشتري لها ڤاسكو ثيابها. وبالرغم من أنها لا تملك ثوباً مناسباً لحفلة لويزا في قسمها الخاص من الخزانة، إلاّ أنّ ذلك لم يشكّل أدنى فارق.

لكن، من يريد أن يظهر في فستان قطني بسيط ورخيص ولديه فستان من «الشيفون» الأخضر الضبابي، مطرز بخيوط فضية، وحذاء أنثوي فضي طري سيزيد طولها بضع إنشات، وقد يبرزها بعض الشيء.

كائناً من تكون أليسا هذه، فهي خبيرة في الثياب.. وأملت آبي أن يلاقي محلها النجاح، فهذه المرأة تكبّدت عناء كبيراً لتجمع لها جهاز عروس.. ويبدو نكراناً للجميل رفض ارتداء هذه الثياب الجميلة المتروكة على تعاليقها.

أحست بنعومة القماش تحت أصابعها وهي تلامسه بحذر.. وتصورت كيف ستشعر به على بشرتها.

ولم يكن أمامها الكثير من الوقت، فقد سمعت ڤاسكو يدخل غرفة الملابس منذ فترة طويلة. ونظرت إلى ساعتها متوترة، بالكاد تستطيع تبديل ملابسها للذهاب إلى الحفلة.

تنهدت، ونظرت إلى الفستان البديل نظرة عدوانية لا يستحقها أبداً.. الحفلات في لندن كانت بسيطة جداً، ولم تحضر سوى تلك التي أقامتها زوجة عمها.. ولم تلفت فيها نظر أحد على أي حال. لكن هذه الحفلة تبدو محفوفة بكل أنواع المصاعب.

وصعب عليها في البدء فهم تصرف الخادمات. اعتقدت آبي أنهن سيسعدن بأمسية من دون عمل، لكن نظرات اتهامية وتنهدات معذبة لاحقتها طوال النهار.

وعضت آبي على شفتها.. يجب أن تتعلم بعض الكلمات البرتغالية الضرورية بطريقة ما، حتى وإن كان ڤاسكو مشغولاً جداً بجني المحصول. وكانت قد سألته عن آنا والخادمتين الأخريين، لكنه هز كتفيه من دون اكتراث.

خلعت عباءتها ورمتها على السرير.. ولاحظت أن الفستان الأخضر يترك أحد كتفيها عارياً.

وقالت لنفسها: سأكره نفسي في الصباح، لكنني الليلة سأبدو زوجة حقيقية لڤاسكو، وليس مجرد قريبة مسكينة!

وضعت اللمسات الأخيرة على زينتها، ثم تراجعت إلى الوراء تنظر إلى نفسها نظرة انتقاد.. وأحست أنها تنظر إلى امرأة غريبة. آبيغايل.. وصيفة الجميع، اختفت تماماً. وظهرت الليلة المحظية المفضلة.. أبرز القماش الناعم قامتها النحيلة بطريقة لم تكن تحلم أنها ممكنة.. ولقد استخدمت ظلال العيون، والكحل وأحمر الشفاه.

وفكرت أن أحمر الشفاه لن يلغي الكآبة المرتسمة على فمها.

كان للفستان شال خاص، فوضعته على كتفيها، والتقطت حقيبة يدها. عندئذٍ، تعالى القرع على الباب وقال ڤاسكو: «جاهزة؟ هل لي أن أدخل؟».

منذ اليوم الأول، تجنب التطفل عليها. وراح يستخدم الباب الآخر ليخرج إلى الممر من غرفته.

استدارت آبي بخجل لتواجهه وهو يدخل. وحين رأته، كاد قلبها يتوقف لجاذبيته.. بدا رائعاً في ثياب السهرة.. والسترة البيضاء تظهر جمال كتفيه العريضتين.

www.elromancia.com

انتظرت، مقطوعة الأنفاس أن يعلّق على مظهرها.. أو أن تصدر عنه اشارة حول تغيير رأيها وارتدائها الثياب التي قدمها لها.. لكنه اكتفى بالقول: «يجب أن نغادر آبيغايل.. فالطرقات سيئة كما تعرفين.. ولن يكون من التمدن أن نتأخر».

لن يستخدما الجيب الليلة، بل سيارة أخرى مريحة ومكيفة بالكامل.

الرحلة إلى لاراكوكا كانت طويلة، وجرت بصمت.. قاد ڤاسكو بثبات، مركزاً على الطريق. فكان يدوس على الفرامل بسرعة ليتجنب بعض الأحيان الحيوانات التي تقطع طريقهما، وتفاجئها أنوار السيارة الأمامية.

كان من الغباء الانجراف وراء الأحلام، وهي تدرك ذلك. لكنها لم تستطع سوى التساؤل عن هذه الرحلة في الظلام. لو كانا عاشقين حقيقيين، لتحوّل الصمت بينهما على الأرجح إلى صمت حميم.. فالانسجام بين شخصين لا يتطلب في الغالب كلاماً، ويولّد إمكانية وجود طفل.. سرّ جميل بينهما يفكران فيه بدلاً من التشاجر.

كتمت تنهيدة. وحاولت رفع معنوياتها المنهارة، فهي متوجهة إلى حفلة بحق السماء، وإن لم تكن معجبة بالمرأة التي تقيمها.. وإذا كانت علاقتها بڤاسكو مثار شائعات بين الجيران، فهي مضطرة للقيام بما في وسعها لتلعب دور العروس المتألقة، لتقنع الجميع بأنهم مخطئون في تصديقهم للشائعات.

قالت لنفسها ساخرة: لقد اعتدت ارتياد المسارح.. حسن جداً.. الليلة ستكونين وسط المسرح..

بدت لاراكوكا كموقع مسرح للوهلة الأولى.. كانت الأنوار تنصب إلى الخارج من كل نافذة في المبنى المتسع وقد علقت المصابيح على طول الشرفة، وفي الأشجار المحيطة. رأت آبي عدداً من السيارات متوقفة هناك، فاستبعدت ألاّ يشارك في الحفلة سوى عدد محدود في الناس.

كانت لويزا في استقبالهما، متألقة في فستان من «التافتا» قرنفلي اللون، وشقيق زوجها جيروليتو إلى جانبها. وبدا أصغر منها بكثير، ويلفه شيء من الغموض.

ـ إذن.. ها أنتما أخيراً.

ومنحتهما ابتسامة قبل أن تشبك ذراعها بتملك في ذراع ڤاسكو.

ـ جيروليتو.. خذ دونا آبيغايل وأحضر لها شراباً.. تبدو بحاجة إلى شراب بارد ينعشها.

ولزم آبي كل ثباتها لتحافظ على ابتسامتها. سنوات طويلة من تعليقات ديلا وأمها المبطّنة، جعلتها قادرة على مواجهة الموقف. وبهدوء قبلت عرض جيروليتو المرتبك لمرافقتها إلى داخل المنزل.

كانت لاراكوكا مثيرةً للإعجاب. من الواضح أن لويزا لم تدخّر الوقت أو المال في إبداع محيط ضخم لنفسها. لكن، بالرغم من الأثاث الفخم، لم يكن المكان يوحي بحميمية المنزل. هذا ما فكرت فيه آبي وهي تنتظر أن يأتيها جيروليتو بكأس من عصير الفاكهة.

حين عاد.. قالت: «إنه منزل ساحر».

هز كتفيه: «إنه مناسب.. فيه غرف كثيرة أضيفت إليه على مرّ السنين من دون التفكير في تناغمه الهندسي».

وتذكرت آبي أنه يريد أن يصبح مهندساً، وقالت: «حسن جداً.. أنت أدرى أكثر مني في هذا المجال».

فزم فمه بنكد وردّ: «أجل.. لكن مثل هذه المعرفة لم تعد تفيدني».

احتست آبي شرابها، وهي تفكر بطريقة تبعده فيها عن حزنه.. وقالت: «أعتقد أنكم تجمعون حصادكم.. وأرجو أن يكون حصاداً جيداً».

هز كتفيه: «التامپيراو.. أعتقد هذا. لدينا مدير أميركي يهتم بكل شيء. كانت المزرعة حياة جواو، لكنها ليست لي. ولا أستطيع بيعها من

دون موافقة لويزا».

ومط شفتيه قبل أن يضيف: «ربما تقتنع الآن بعد أن...».

وسكت فجأة.

فحثّته آبي: «بعد أن.. ماذا؟».

احمرّت بشرته الشاحبة وأجاب: «ديكوليس.. هذا ليس مهماً».

وبدا محرجاً للغاية. فاقترحت ببرود: «أتعني بعد أن تزوج ڤاسكو».

أجفل.

ـ سامحيني دونا آبيغايل. لقد تكلمت من دون تفكير.. في الواقع..

وصمت مرة أخرى.

فقالت تكمل كلامه: «في الواقع، كان هذا ليناسب الجميع».

ثم لان صوتها: «لو بعت المزرعة، فهل ستعود إلى ساوپاولو؟».

وكان السؤال المناسب.. وتهلل وجهه، وتحولت إنكليزيته الضعيفة إلى مزيج من البرتغالية والأنكليزية وهو يخبرها بحماس عن المؤسسة التي عمل فيها.. وعن المشاريع التي شارك فيها. وبدا جلياً أنه كسمكة خارج الماء في الأمازون... مثلها تماماً، وشعرت آبي بالإشفاق نحو جيروليتو.

وبالتفاتة صغيرة، رأت لويزا تدخل الغرفة، وهي لا تزال تتمسك بذراع ڤاسكو، ووجدت نفسها تتساءل لماذا لم ينتظر فترة الحداد المعتادة اللائقة ويطلب يدها. لعله كان ينوي هذا.. إلا أنه التقى ديلا ووقع في حبها كالمجنون.. بحيث لم يعد أي شيء آخر يهم.

ولو لم أتدخل، فكرت بألم، لفسخ خطوبتهما وعاد إلى هنا، وفي الوقت المناسب، ليرتبط على الأرجح بلويزا...

ظهر لينك دالتون إلى جانبها: «هاي.. إنها حفلة.. وليست مأتماً! لا عجب أنك يائسة.. دعيني أحضر لك شراباً آخر».

أمسكت ذراعه وقالت: «لا.. حقاً.. لا بأس في هذا. لا أرغب في

شيء آخر».

هز كتفيه: «حسن جداً.. بعض الرقص إذن.. هه؟ أي شيء تقدمه ريو، ويمكن للأرملة السوداء أن تبرع فيه».

اعترفت آبي: «لم أكن أعرف أن الحفلة على هذا المستوى.. من أين أتى كل هؤلاء الناس؟».

ـ ستفاجئين.. هذان الاثنان هناك، جاءا بالطائرة، وسيقيمان هنا يومين.. والقلة قدمت من المستوطنات.. وذاك هو الطبيب، جورج آروپا. هل التقيته؟

ـ لم ألتق أحداً في الواقع، ما عدا رب عملك.

ـ هذا ما لاحظته.. وكان في الواقع يبتسم. لذا خمنت أنه يتكلم عن الأيام القديمة الطيبة التي أمضاها في ساوپاولو.

كان في صوته شيء من الازدراء، فنظرت آبي إليه بارتباك قائلة: «هذا الأمر ليس سهلاً عليه، ليس من السهل أن يتكيف مع هذه الحياة».

ـ إنه لا يريد أن يتكيف.. يريد فقط أن يرحل من هنا.

ومرر لينك يده في شعره: «أعتقد أننا لا نعمل على الموجة ذاتها، أنا أحب الأشجار، وأجعلها تنمو قوية سليمة، وهو يحب أبراج الإسمنت».

ونظر إليها باكتئاب ثم أضاف: «لو قرروا بناء برازيل جديدة هنا.. لوجد مضماره الملائم!».

وصمت: «دعيني أقدمك للبعض.. على أي حال، يريد الجميع لقاء العروس».

كانت آبي تشعر بالنظرات المتسائلة تتجه نحوها. لهذا، سمحت للينك بأن يقودها عبر الغرفة، ورنة صوته التهكمية تقدّمها على أنها السنيورا دونا آبيغايل داكاراڤالو.. وبدا كأن هذا يرسّخ في ذهنها أنها أخيراً زوجة ڤاسكو.. وسرّها أنها اعتنت بمظهرها. صحيح أنها لن تستطيع منافسة ثوب لويزا المزخرف بإسراف، لكن رؤية الإعجاب في عيون

الرجال بلسمت معنوياتها . . وكذلك إعجاب النسوة الحاضرات .

قال الدكتور آروبا، وهو يأخذ المبادرة من لينك: «أهلاً بك في ريوتشو نيغرو دونا آبيغايل» .

كان رجلاً طويلاً، عريض المنكبين، لحيته سوداء مجعدة . ابتسم لها بلطف شديد، وتابع كلامه قائلاً:

ـ الآن وقد جئت، ربما سيقتنع عدد من العازبين أن يحذوا حذو ڤاسكو . . . كيف تجدين الطقس هنا؟

بدأت ترد، لكنها صمتت حين لاحظت الجهة الأخرى من الغرفة، حيث الطاولات التي تعجّ بالأطباق . فقد رأت خادمتين تجران عربة طعام تحمل قالب حلوى، مضاءً بالشموع، فيما تعالى الضحك والتصفيق . ولم تجد آبي صعوبة في اكتشاف محط كل هذا الاهتمام . . إنه ڤاسكو . . والتقت نظرته بنظرتها وهو يبتسم بجفاء .

هدف الحفلة تجلى أمامها بوضوح حين بدأ الضيوف يغنون بحيوية لحناً لا يمكن للمرء أن يخطئه: «سنة حلوة يا جميل» .

جلّ ما أرادته آبي هو أن تنشّق الأرض لتبتلعها . . إنه عيد ميلاد ڤاسكو . . ولم تكن تعرف . . . الآن فهمت سبب تكدر الخادمات في الغازيندا، فهن يتوقعن احتفالاً خاصاً .

وشعرت أن ابتسامتها قد تجمّدت . أوه . . لماذا لم يقل ڤاسكو شيئاً . . لماذا لم يلمّح؟ ورأت لويزا تقدم له علبة مربوطة بشرائط . . فيما هي، التي من يُفترض بها أن تكون زوجته، لم تتمنَ له عيداً سعيداً وعمراً مديداً! وأدركت بحدة مدى تطفلها عليهم، فهي دخيلة هنا .

وصلها صوت لويزا المعسول: «كرم منك أن تشاركي ڤاسكو في مناسبة خاصة كهذه دونا آبيغايل . . هل أعطيته هديته سلفاً . . أم ترغبين في تقديمها الآن؟» .

كان الجميع يبتسم، وينظر إلى آبي مترقباً، لكنها التفتت إلى لويزا

فرأت التحدي الساخر في عينيها .

وفكرت مخدرة الأحاسيس، في أنها تعرف أنه لم يكن لديها أدنى فكرة عن عيد ميلاده . . وستتركها تتخبط وحدها، لترتسم الخيبة على وجهها، فيعرف الجميع الحقيقة .

قال ڤاسكو بهدوء: «أنت محقة تماماً عزيزتي لويزا . . لقد سبق وأعطتني آبيغايل هديتها» .

واقترب من آبيغايل، وأمسك يدها ليرفعها إلى شفتيه . . ثم أضاف مبتسماً: «أثمن هدية يمكن لزوجة أن تقدمها لزوجها» .

وتعالى الضحك . . وبعض الملاحظات الجريئة من أصوات الرجال .

وارتفع حاجبا لويزا: «كم هذا رومانسي . . هل لنا أن نعرف طبيعة هذه الهدية؟» .

التفت ذراع ڤاسكو حول خصر آبي المتصلب، وشدها إليه قائلاً: «يجب أن تعذريني . . فبعض الأسرار حميمة جداً ولا نشاركها حتى مع الأصدقاء» .

نظرت آبي إلى الأرض، والاحمرار يغزو خديها . وافترضت أنّ عليها أن تكون ممتنة له، إذ قدّم تفسيراً لن تجرؤ حتى لويزا على طرح المزيد من الاسئلة عنه . لكن، كيف تكون ممتنة وقد جعل الجميع يعتقد . . أن . . ولم ترغب في أن تفكر بما يخطر في بالهم . . وأحست بجرح معذب .

لقد أخمد ڤاسكو الشائعات حول زواجهما بشكل قاطع، مرة واحدة وإلى الأبد . وبعد هذه الليلة، لن يصدق أحد أنهما لا يعيشان علاقة حب مشبوب .

وفكرت باكتئاب: وحدي أنا أعرف الحقيقة . . ومضطرة للعيش معها .

***

٧ ـ لا تطلبي القمر!

بدا لها أن الأمسية لن تنتهي، وأملت آبي أن يغادرا الحفلة بعد العشاء.. فعلى أي حال، ينتظر كل من في الحفلة يوم عمل حافل في الصباح التالي... أو هكذا افترضت. لكن لم يبدُ أن أحداً يستعجل الرحيل.. ولا سيما ڤاسكو.

بعد العشاء، ظهر بعض عمال لاراكوكا على الشرفة، وشكّلوا فرقة موسيقية. بدأ الرقص، ووجدت آبي نفسها تنتقل من شريك إلى آخر...

وقالت في سرها إنها لن تجعل هذا يؤثر على عقلها. فلو كان لها حدبة أو مصابة بحَوَل، لاستمروا في طلب مراقصتها.. فهي جديدة هنا.. وهذا كل ما في الأمر.

ولقد جعلت لنفسها عدواً.. إذ رفعت نظرها في لحظة معيّنة من الأمسية لتجد عيني لويزا مسلطتين عليها بعدوانية، فأحست أن جسمها يقشعر.

واستدارت قائلة في سرّها: كوني صبورة.. بعد بضعة أشهر سترحلين من هنا.. وستجدين أن ديلا أشد قسوة عليك. وتصوّرت جيداً غضب لويزا وإحباطها حين وصلها خبر زواج ڤاسكو الوشيك.. لكن المنحى الذي أخذه هذا الزواج، أعطاها أملاً جديداً.. حتى هذه الليلة.

لا تزال آبي تجهل ما الذي دفع ڤاسكو ليقول أشياء مماثلة. ظنته

سيترك الأبواب مشرّعة للأقاويل والشائعات التي يثيرها هذا الزواج، بحيث يصبح الفراق النهائي قابلاً للتصديق.

وافترضت أن كبرياءه لم تسمح بهذا. ولهذا تصرف بشكل يثير الغضب، ولعب دوره بإتقان. وأمام ازدياد قلقها، أصرّ على أن تشاركه أول قطعة من قالب الحلوى، ورفع كأسه بتحية صامتة كلما التقت أعينهما، وراقبها وهي ترقص وتمر أمامه، وكأنه لا يطيق أن يتركها تغيب عن نظره.

وكل هذا لأنه لا يحتمل أن يظن الناس أنه ليس عاشقاً عظيماً.. تفقد عروسه صوابها بين يديه. وأبعدت آبي ذكرى ردة فعلها حين أخذها بين ذراعيه.

لم تعد ترغب في الرقص، أو الحديث إلى أناس يتكلمون إنكليزية ركيكة.. وكان الدكتور آروبا الوحيد الذي يتكلم الإنكليزية بطلاقة، لكن بدا جلياً أنه يعتبر آبي مريضة محتملة بصفته طبيب توليد، لذا حاولت أن تتجنبه.

ما إن تمكّنت من ذلك حتى تسللت من الحفلة مدعية أنها تبحث عن الحمام. ولم تسرع في العودة.. وأوحى لها بقية المنزل بحب أصحابه للبذخ والترف، ولكن هذا بالكاد يبدو ملائماً في هذه الأصقاع النائية.. إنه مجرد مكان للعرض.. فعدا عن هذه الحفلات بين الحين والآخر، ما من أحد يشاهد كل هذا.

ظهر لينك فجأة في الممر إلى جانبها، فقفزت مجفلة: «أترغبين في جولة؟».

ترددت آبي: «لا.. أنا آسفة.. سيبدو هذا تطفلاً مني».

هز كتفيه: «أبداً.. كل شيء هنا للفرجة.. وغالباً ما أتفرج عليه بنفسي.. لا سيمّا ما أضيف في السنة الماضية».

ورأى نظرة آبي المندهشة، فهز رأسه قائلاً: «لا سيدتي.. لم يكن

www.elromancia.com

الأمر على هذا الحال دائماً. حين كان سنيور غونزاغا حياً، حرص على أن تعود أرباح المزرعة إلى الأرض.. وسعى هو وڤاسكو إلى استثمار مال الحكومة في البنية التحتية هنا، وعملا بجهد على تحسين نوعية المحصول وكميته. ومن المؤسف أن جواو لم يعش ليرى أحلامه تتحقق. من ناحية أخرى، ربما من الجيد ألا يرى ما تفعله أرملته الحزينة، وشقيقه، في هذا المكان.. كل سجادة مشغولة يدوياً، كل مصباح مستورد، وكل ستارة حريرية، تمثّل خسارة بحد ذاتها. والعمال يطردون لأنهم لا يقبلون بالأجور. ولقد تركت المعدات تتعطل، هل أحتاج لقول المزيد؟».

وأمسك ذراعها مضيفاً: «تعالي إلى هنا لحظة».

دخلا غرفة صغيرة، زاد من صغرها منضدة ضخمة مليئة بالأوراق المبعثرة، وخزائن ملفات تكاد تلفظ محتوياتها.

تقدم لينك إلى المنضدة ووضع إبريق القهوة في مقبس الكهرباء.. ثم صب فنجانين أعطاها أحدهما.

ـ تبدين كأنك بحاجة إليها.. وأنا كذلك.

حين شربت السائل الساخن، أحست بالدفء، وزال شيء من البؤس من نفسها.

التفتت حولها، ولاحظت بعض البيانات والصور المعلقة على الجدار، كتلك التي رأتها ودرستها في المكتب في الغازيندا. كانت تحمل صوراً تفصيلية لحشرات متنوعة، ورسومات لأوراق الكاكاو التي تعاني من أشكال مختلفة من الأمراض.

ولحق لينك بنظرتها: «إنها كثيبة.. أليس كذلك؟ ومعظمها موجود هنا في لاراكوكا. لقد طلب جواو معدات رش جديدة قبل أن يموت. لكن جيروليتو كوريث له ألغى الطلب.. وكنت أعمل بما استطعت الحصول عليه من الجيران.. ومن زوجك أيضاً».

تنهد: «لكن هذا لا يكفي. هناك هكتار مصاب بآفة «لارغاتاو» ولعل

هناك المزيد».

قطبت آبي: «لارغاتاو؟ لم أسمع بهذا المرض من قبل».

ـ إنه أسوأ وباء قد يصيب مزرعة، ويسمّونه كذلك فاسورا دو بروكسا.. وهذا يعني «مكنسة الساحرة».

قطبت آبي حاجبيها مجدداً: «مكنسة الساحرة؟».

وتذكرت حديث ڤاسكو عنها، وعن تأثيرها على حياة ابن عمه.

وسألت: «لماذا تدعى هكذا؟».

هز كينك كتفيه وردّ: «لأن إصابات الوباء طويلة الأمد وتشوه الشجر، مثل مخالب الساحرة».

ونظر إليها ساخراً: «هذا أمر رومانسي. لكن، ما إن يتملك، قد يكلف ثروة، والكثير من العذاب للتخلص منه، يا إلهي كم ينتشر!».

وهز رأسه مضيفاً: «قلت لجيروليتو إننا يجب أن نتفحص المنطقة كلها، وبدقة.. لكنه لا يريد أن يسمع».

في سرّها، أحست آبي بالأسى على جيروليتو الذي بدا غير مناسب للقيام بدوره الجديد. وقالت: «ربما يستطيع ڤاسكو أن يكلمه».

صاح لينك: «يا للجحيم.. لا! بصفته أقرب جار لنا، هو آخر شخص أريده أن يتورط.. لقد استثمر الكثير في ريوتشو نيغرو مؤخراً.. ولن يرغب في سماع أيّ شيء عن مكنسة الساحرة قرب مزرعته.. وآمل أن أستطيع التعامل مع المرض.. ولن يكلفه هذا ليلة نوم».

رفعت آبي عنقها لتنظر إلى الصور المعلّقة: «أي واحدة من هذه؟».

ـ إنها هنا.

وأمسك يدها يدلها على الصورة المناسبة.

ونظرت آبي إلى الصورة التي بدت لها غير مؤذية، وكأنها غصن مشوه أو غصن جديد، يمكن أن تحمله أيّ شجيرات صغيرة.. ومع ذلك كانت مدمرة.. تحطم الحياة.. وارتجفت.

www.elromancia.com

قال ڤاسكو ببرودة شديدة من على الباب: «آمل ألاّ أكون متطفلاً.. لكنني جئت أقول لآبيغايل إن الوقت حان لنرحل».

ولم يبدُ الاضطراب على لينك، حين أجابه:

- بالتأكيد. كنت أشرح لها عن صناعة الكاكاو.. وهي سريعة التعلم.

لم تصل ابتسامة ڤاسكو إلى عينيه وهو يقول: «أنا واثق من أنها وجدت هذا مثيراً».

ومد يده بشال آبي: «هل أنت جاهزة كيريدا؟ لويزا تنتظر لتودعك».

طوال وداع لويزا المزيف والمطول، أحسّت آبي بعيني ڤاسكو تتأملانها.. وبابتسامته باردة مصطنعة.

ولم يكلمها وهما يصعدان إلى السيارة، وأدار المحرك.. وكانا قد قطعا مسافة لا بأس بها حين قال: «طلبت منك من قبل أن تبتعدي عن لينك دالتون، يا آبيغايل. هل لي أن أعرف سبب تصميمك على التحدي؟».

- أنا لا أتحداك.

- إذن، لماذا وجدتك معه في المكتب بعد أن تركت الحفلة؟

- كنت في الحمام.. والتقيته في الممر.

وكرهت نفسها للهجتها المدافعة.

- وذهبت معه إلى المكتب.

التفتت إليه وأجابت: «أجل.. فعلت.. فهذا ليس مخدعاً للنوم، على أي حال.. و.. وعلى الأقل لقد تحدّث إليّ.. وشرح لي أشياء... كلانا دخيل هنا، وهو.. يفهم هذا».

بدت الدهشة في صوته: «وهل تشعرين بالعزلة؟ لم أدرك هذا».

فقالت بشراسة: «وكيف لك أن تدرك ذلك؟ على أي حال، لديك حياتك المهنية، كما كانت تماماً قبل حضوري إلى هنا. وأنت لا تقضي

اليوم كله، وكل يوم دون أيّ عمل، تتساءل عما ستطلقه الخادمات من شائعات».

- وماذا يعني هذا؟

احمّر خداها قليلاً وردّت: «لا شيء».

- فهمت.

وساد صمت قصير قبل أن يسألها: «وأي مرحلة من مراحل زراعة الكاكاو كان دالتون يحدّثك عنها؟».

فتحت شفتيها لتتكلم، ثم أطبقتهما مرة أخرى، وقد تذكرت تحذير لينك.

وقالت بلهجة متكلّفة: «لا أذكر».

- إذن، إذا لم تجدي الحديث شيقاً، فلا بد أنه رفيقك.

صاحت به: «أوه.. لا تكن سخيفاً هكذا.. لا تريد أن تكلمني ولا أن يكلمني أحد، على الأقل لينك يعاملني كإنسان».

فقال بأدب كبير: «يبدو أنني لا أفعل، مويتو أبريغادو سنيورا».

لا سبيل لأن تشرح له.. وفكرت آبي بهذا متألمة.. بينما حلّ صمت ثقيل بينهما مرة أخرى.. ولم يكن هناك الكثير لتناقشه مع ڤاسكو.. لكن يجب أن يبقى هذا سراً.

يجب أن تعترف أنه عرض عليها أن يطلعها على أعمال المزرعة، لكنها أخطأت حين لم تقبل ذلك الاقتراح.

لكن، لن يدينها أحد بسبب الحديث البريء الذي استمتعت به مع لينك هذه الليلة، إلا إذا كان الرجال في البرازيل يشعرون بالتملك في ما يتعلق بنسائهم... وكتمت تنهيدة.

حين وصلا الغازيندا، توجّهت آبي مباشرة إلى غرفتها، وجلست إلى طاولة الزينة، وبدأت تزيل تبرجها بعناية. ومن دون زينة، عادت لطبيعتها، ودرست النتائج بحكمة.. إنها الآن كعصفور دوري، بدلاً من

www.elromancia.com

عصفور الجنة الذي كانت عليه الليلة، ولن تسبب أي قلق لأي زوج.

التقطت فرشاتها وراحت تسرّح شعرها بحركة آلية منتظمة، لكن هذه الحركة فشلت في تهدئتها. لقد تركتها الأمسية متوترة، وأثارت فيها شعوراً بالوحشة والغربة. دهش ڤاسكو لإحساسها بأنها دخيلة، في حين لم يزعج نفسه بأن يقول لها إن اليوم عيد ميلاده!

وحين انفتح الباب فجأة، ودخل الغرفة وتقدم منها، لم تفاجأ، ونظرت إليه عبر المرآة.

ارتفع الحاجبان المتعجرفان وسألها: «إذن.. جاء الآن دورك لتغضبي مني، هل لي أن أعرف السبب؟».

فسألت بدورها بغضب: «وهل تحتاج لأن تسأل؟ كم بلغ عمرك اليوم ڤاسكو؟ أم أنه سرّ؟».

ـ بلغت الثالثة والثلاثين.

وتفحصها متسائلاً: «ألهذا أنت متكدرة.. لأنني لم أذكر لك أن اليوم عيد ميلادي؟».

هزت رأسها: «وهل هذا أمر عجيب؟ لا بد أن الجميع في تلك الحفلة اللعينة الليلة، لاحظ أنني الوحيدة التي لم يكن لديها أيّ فكرة عما يجري.. كان يجب أن تحذرني».

هز كتفيه دونما اكتراث: «لم أشأ أن أفرض عليك إقامة حفلة كيربدا، ولعل اختيار لويزا هذا التاريخ بالذات لحفلتها، مجرد صدفة».

ـ لكنه لم يكن صدفة.

ـ لا.. لم يكن.

تابعت: «والخادمات منزعجات».

وأخذت تمشّط شعرها بقوة حتى آلمها رأسها.

ـ لم يخطر هذا ببالك كما أعتقد، أو فكرة أنني قد أرغب في تقديم هدية لك.

ـ وما الذي تفكرين فيه؟

في المرآة، التقت عيناه السوداوان بعينيها بفضول، فأخفضت ناظريها. وقالت بسرعة: «لست أدري، لفكّرت بشيء.. لو أعطيتني فرصة».

ـ اسمحي لي أن أساعدك.

ومال إلى الأمام ليأخذ فرشاة الشعر من يدها ويضعها بلطف على طاولة الزينة.

وأكمل بلطف: «هل أقول لك أيّ هدية أريدها منك، كارينا؟».

انحنى الرأس الأسود، ولامست شفتاه كتفها العاري.

ـ أريدك أنت آبيغايل.. دعيني أبقى معك الليلة.

بدأ قلبها يخفق بشدة وألم، ومن دون ثبات.. وقالت والغصة في حلقها: «أنت.. تركت الكل يظن أنك تفعل هذا.. ألا يكفي لكبريائك؟».

سأل بصوت ناعم: «ومن يتكلم عن الكبرياء؟».

ـ ظننتك أنت تتكلم عنها.

وعضت على شفتها بقوة حين بدأت أصابع ڤاسكو تداعب عنقها، ببطء وإثارة.

ـ وهل.. يزعجك أنني فضلت صحبة رجل آخر على صحبتك، ولهذا تفرض نفسك.. لتبرهن وجهة نظرك.

ساد صمت متوتر بينهما.. وجمدت الأصابع المداعبة.

وأخيراً قال: «وإن كان هذا صحيحاً؟ أتظنين أنّ ما من سبب آخر يدعوني إلى هذا؟ انظري إلى نفسك سنيورا».

وأمسكت يده ذقنها ليجعلها تلاقي نظراته مرة أخرى.

ـ تبدين وكأن أحداً لم يمسّك، كيربدا.. وهذا يثير فضول أي رجل، والمعجب بك على استعداد لأن يشفي غليله، كما أعتقد.. لذا، سأبعد

الإغراء.. من الآن وصاعداً، لن يبقى أي شك لدى أحد عما إذا كنت لي.

بدا صوتها متوتراً، ويائساً: «لا حاجة لهذا».

- وماذا تعرفين عن الحاجة.. مينا اسبوسا؟

وتحركت يداه مجدداً على كتفيها، واخترقت جسمها وخزة إثارة خجولة.

- أنت زوجتي آبيغايل.. لكن، كوني امرأتي الليلة.. انسي كل ذلك الهراء عن الحب. وتذكري فقط أنك أردتني مرة.

وداعب فمه عنقها، وأذنها.. ثم همس: «لن أؤلمك كيريدا.. أقسم لك».

وفكرت آبي المصدومة: «بدون ألم.. كيف يستطيع أن يقول إنه لن يؤلمني وقد صرف النظر لتوه عن حبي له.. الهدية الوحيدة التي أستطيع أن أهبه إياها، وبمثل هذا الإهمال؟ هل يظن حقاً أنه قادر على استغلالي كمتنفس لحاجاته من دون أن أعاني حتى نهاية أيامي!».

من السهل أن تستدير نحوه، وتستسلم لفيض أحاسيسها. أمر سهل جداً.. ومع ذلك مستحيل.

- استرخي كارينا.

وكان في ابتسامته سخرية وكأنه يثير صراعها الداخلي أكثر، ويرجّح كفه ضد ردة فعلها الطوعية.

- لا تطلبي القمر.. وبوجود خيار ثانٍ، لماذا لا ترضين به؟

خيار ثانٍ.. راحت الكلمتان تتعاظمان في رأسها.. ليست سوى بديل شاحب عن ديلا، وجمالها المغري المتألق.

لن أستطيع..

حررت نفسها منه: «دعني ڤاسكو.. أنا لست لفافة مشتريات يمكنك أن تفتحها متى شئت!».

فرفع رأسه بحدة، ونظر إليها، شاحباً رغم سمرة بشرته.

وقال بخشونة: «ألا تظنين هذا؟».

ووضع يديه تحت إبطيها، ليوقفها بسرعة مربكة على قدميها، ثم مد يده إلى سحاب الفستان، وفتحه بعنف أحست معه أن القماش يتمزق.

قالت متوسلة: «لا».

لكن الأوان فات، وتكوم الفستان الجميل ممزقاً كبركة خضراء ضبابية عند قدميها.

ورفعها بين يديه وحملها إلى السرير، ثم أنزلها بخشونة على الوسائد، قبل أن ينحني عليها.

قال بهدوء: «أنت رقيقة جداً كارينا، مثل عصفور بري صغير. وهذا يجعلني أخاف بعض الشيء..».

ولوت ابتسامة رقيقة فمه وهو يتأملها، ويتمتم: «بعض الشيء.. مع ذلك، ليس كلياً».

فارتجفت، وبدا وكأن كل إحساس فيها يرتعش ترقباً.

وفكرت: «أوه يا إلهي.. لِمَ لا.. إنه زوجي».

كل ليلة موحشة تحملتها منذ وصولها إلى ريوتشو نيغرو، حثتها على أن تتقبل السعادة التي يعرضها عليها. وهدأ غضبه الأسود، واستعاد سيطرته على نفسه..

وهمس في أذنها: «قولي لي إنك لا تريديني».

حتى وإن كانت قادرة على الإنكار، فإن الدليل القاطع على مشاعرها سيكذّبها.

حاولت أن تتمتم باحتجاج.. لكن الكلمات الغامضة اختنقت على الفور، وضاعت بين ذراعيه. كان لا يزال مسيطراً، لا يزال سيد الموقف... وقالت لها غرائزها إن هذا سيدوم إلى أن يصل إلى الهدف

www.elromancia.com

المنشود.

لكن، لا شيء يدوم.. أدركت هذا بعد لحظات طويلة وهي مستلقية إلى جانبه.

هل يعرف ما أحست به؟ لكنه طبعاً يعرف، وذكرها بذلك صوت داخلي صغير.. إنه رجل مجرب ومحنك، وليس صبياً أغر.. لقد صمم على أن يخضعها لإرادته.

وفكّرت بألم.. تحدّث عن إسعادها، لكن من دون كلمة حنان واحدة، أو كلمة حب. لكن لماذا سيفعل؟ فهو يعرف أنها تحبه، ويظن على الأرجح أنها ستكون ممتنة.. وأنه في المستقبل، يمكن أن يتطلع إلى جسد أنثى راغبة بين ذراعيه.. حتى ولو لم تكن، ولن تكون، المرأة التي اختارها.

لكنه تزوجها.. وهي موجودة، وهذا كل ما يهم في النهاية.. والحب المشبوب الذي انتزعه منها بمثل هذا الصبر، هدفه أن يتمتع بحقوقه الزوجية.

كان قد وجد اتفاقهما الأصلي، اتفاقاً عظيماً، ولا تستطيع لومه على ذلك.. إنه رجل مليء بالحيوية، وجذاب للغاية.. وحياته العملية خشنة ومتطلبة، ولا بدّ أنه يعتبر أن من حقه الاسترخاء.. ايجاد متنفّس جسدي ملائم، حين يتطلب مزاجه هذا. وإذا استطاع إبعاد عروسه البديلة عن السلبية، سيعتبر هذا مكافأة.

لكن، آخر ما يرغب فيه هو مجاهدتها بحب لا يموت.. لقد حذرها «لا تطلبي القمر».

تحرك ببطء، وكان في صوته مرح خفيف، ورنة أخرى، لم تستطع تحديدها بسهولة.

- حسن جداً سنيورا دونا آبيغايل.. هل آمل أن ترحبي بي ليلاً بحماسة أكبر في المستقبل؟

قالت بخشونة: «لا تعتمد على هذا».

استند ڤاسكو إلى مرفقه بسرعة، ليتأملها، وقطّب حاجبيه السوداوين، بشكل ينذر بالسوء حين رأى الدموع على وجهها.

أخذ نفساً حاداً، قبل أن يسأل:

- ما الأمر.. لماذا تبكين؟

- وهل تتوقع مني أن أصفق فرحاً؟

وعضت آبي شفتها وهي تضيف: «أم ظننت أنني سأهنئك. حسن جداً، أهنئك.. أنت.. عاشق رائع لا أشك أنك تعرف ذلك.. لكن أيّ علاقة من دون حب، مهما كنت خبيراً، لا تعني شيئاً، بل إنها مجرد إهانة».

ساد صمت رهيب، قطعه ڤاسكو: «أتعتبرين نفسك منحطّة، بسبب ما حدث بيننا؟».

قالت بضعف: «أجل. أجل.. هذا رأيي».

هذه المرة بدا الصمت وكأنه لن ينتهي.. ثم قال بنعومة: «هذا أمر مؤسف سنيورا.. لكن ارتاحي الآن.. بعد أن فتحت هديتي، وجدتها لا تناسب ذوقي.. ويمكن وضعها بسهولة جانباً».

وجلس على جانب السرير ثم انحنى ليستعيد ملابسه المبعثرة.. وحين استقام، استدار إلى السرير مجدداً، وأمسك بالملاءة وازاحها، ثم رمق جسمها المنكمش بنظرة طويلة ومزدرية، قبل أن يقول بسخرية:

- بوانوي سنيورا.. أتمنى لك أحلاماً حلوة.

وسار مبتعداً واختفى في غرفة الملابس، بعد أن صفق الباب وراءه.

تقلبت آبي في الفراش مرتجفة، ودفنت وجهها في الوسادة، وهي تضغط يديها بتشنج على أذنيها. لكنها أيقنت تماماً أنّ صدى صفق الباب سيتردد في رأسها إلى آخر يوم من حياتها.

***

٨ ـ عودة الغريمة

كانت هذه أسوأ ليلة أمضتها آبي، إذ استلقت تحدق في الظلام تتألم، ولا تجد سلوى في النوم.. وكرهت نفسها لضعفها.

حاولت التخفيف عن نفسها بأنها تمكنت من استعادة شيء من احترامها لنفسها. لكنها فشلت، فالثمن الذي دفعته من كرامتها كان مرتفعاً.. وأجفلت من ذكرى سخرية ڤاسكو، والنظرة المتعجرفة المتباعدة التي تأملتها.

وأخيراً، بكت إلى أن نامت إرهاقاً.

استيقظت في وقت متأخر من الصباح، وكانت الشمس تصب أشعتها في الغرفة عبر النافذة المفتوحة. فتحت عينيها ببطء ومن دون رغبة، لتجد ڤاسكو يقف بجانب السرير يراقبها.

احمرّت بألم وشدت الملاءة حتى ذقنها.. فرأته يجفل، واحمرار غريب يحرق خديه، ثم جلس على حافة السرير، يحاول ألاّ يلمسها أو يقترب منها.

قال بهدوء: «آبيغايل.. جئت أطلب منك الصفح.. طريقة تصرفي ليلة أمس.. الأشياء التي قلتها لك.. لم تكن مبررة أبداً».

فقالت بصوت يكاد لا يسمع: «لا بأس».

سأل بصوت أجش: «كيف تقولين هذا؟».

وتنهد، وأبعد نظره عنها مضيفاً: «كنت بالطبع، على حق. ولا أجد

عذراً لنفسي.. إنها المرة الأولى التي أسمح فيها.. لرغبتي فيك بأن تتغلب على تعقّلي. والمعاشرة من دون حب متبادل لا تعود إلاّ بالخزي على الطرفين.. وما كنت بحاجة لأن تقولي لي هذا.. ولعل هذا هو سبب غضبي».

نظر إليها باكتئاب: «لذا.. أطلب منك أن تسامحيني.. على كل شيء».

أحست آبي وكأن كيانها يتحطّم، وروحها تنتزع من جسمها.

فكرت بألم: أوه.. أرجوك.. ألا يمكنك أن تهتم لأمري.. أرجوك؟ ولو قليلاً؟ أنا أحبك كثيراً ڤاسكو.. وسأجعل حبي كافياً، إن أحببتني بجزء بسيط من نفسك وحسب.. سيكفيني هذا..

لكنها لم تنطق بأيّ كلمة، بل استلقت جامدة، تنظر إلى يديها تشدّان على الملاءة حتى ابيضت عقد أصابعها لفرط توترها. توترلم تكن تجرؤ على إظهاره.

وساد صمت ثقيل، قال بعده: «لا يمكن للأمور أن تستمر على ما هي عليه، كلانا بحاجة إلى التفكير، لنقرر ما هو الأفضل لمستقبلنا».

وتابع كلامه قائلاً: «أنا.. مضطر للسفر إلى ماناوس لشهر أو أكثر. ربما ونحن بعيدان عن بعضنا البعض وعن ضغط الحياة هنا، سنتمكن من رؤية الموقف بوضوح أكبر».

وابتسم بغموض مضيفاً: «قد نجد طريقة لإصلاح الضرر الذي تسببناه لبعضنا».

أحست بحنجرتها تتقلص وسألته: «وبماذا.. بماذا تفكر؟».

هز ڤاسكو رأسه وأجاب: «لا نستطيع متابعة النقاش الآن».

ونظر إلى ساعته، قائلاً:

- بيدرو لازارو ينتظرني على المدرج.

لاحظت آبي أنه لا يرتدي ثياب العمل العادية، بل واحدة من بذلاته

مع قميص وربطة عنق حريريتين، ما أضفى على مظهره وسامة وسحراً. . وتحرك الشوق في داخلها وبدأ يمتد كيد جشعة. .

تابع كلامه: «مهما كان القرار آبيغايل، يجب أن يكون مشتركاً، لكن يستحيل أن تستمر حياتنا كما هي، أمامك شهر كامل لتقرري. أنت تفهمين هذا. . أليس كذلك؟».

هزت رأسها إيجاباً من دون أن تتكلم. ومد يده ليأخذ يدها ويرفع أصابعها بسرعة واحترام إلى شفتيه: «أديوس».

أحنى رأسه بتحية مختصرة، وخرج.

وللمرة الثانية خلال بضع ساعات، راقبت آبي الباب يقفل خلفه. . هذه المرة كانت نقطة النهاية للمسألة.

وفكرت. . إنها مخطئة. ڤاسكو لم يكن مستعداً للقبول بالخيار الثاني، ولم تجد سلوى في اكتشافها هذا.

* * *

لقد مرّ شهر على رحيل ڤاسكو، شهر كان بمثابة دهر. وفي كل صباح كانت تستيقظ على شوقها إليه، فتلك الليلة التي قضياها معاً حركت في كيانها مشاعر لطالما كبتتها.

كان هذا الصباح طويلاً جداً، وبغياب «لپاتراو» بدت الغازندا خاملة، وكأنها مستسلمة للنعاس. حتى دون الفونسو بدا هادئاً، يتقبّل تملّق آبي رافعاً رأسه بتكبّر.

كانت قد أنهت غداءها على الشرفة حين ظهرت ماريا، وهي تمسك مغلفاً أزرق نحيلاً، وأعلنت بشيء من التأنيب: «لك سنيورا».

ـ أوبريغادا.

أخذت المغلف منها، ولاحظت بحيرة أن العنوان هو «الآنسة آبيغايل ويستمور»، لكنها لم تتعرف على الخط.

فتحت الورقة الوحيدة ورأت أنها من كيث. .

كانت الرسالة شكوى وتذمرّ من بدايتها حتى نهايتها، ومحشوة بجمل مثل «يبدو أن مشاعري لم تكن مهمة» و «بالرغم من الإزعاج الذي تسببت به». . اضطرت إلى قراءتها مرتين قبل أن تفهم المعنى الحقيقي، وهو أن كيث مستعد، ولو على مضض، لاستئناف علاقتهما «حين تعودين إلى رشدك» كما قال.

ولم يضع وقته على اعتبار زواجها كارثة. . مع ذلك حين أبلغته الخبر في لندن، لم يعلّق، بل حدق فيها بغضب متزايد. كما لم يكن لديه اللباقة الكافية ليكتب العنوان باسمها بعد الزواج. . وتنبّهت فجأة إلى أنه لم يدوّن أيّ عنوان، فكيف بحق الله وصل كتابه إلى هنا؟

ابتلعت ريقها. . فالجواب بسيط. . كانت الرسالة مع رسالة أخرى من شخص ما. . شخص يعرف مكانها، ويعرف كل شيء عن ريوتشو نيغرو، كما يعرف كيث أيضاً.

وجف فم آبي فجأة. فاحتست بعض القهوة، وكشرت لمرارتها.

ربما هناك تفسير آخر. . ابن عم ڤاسكو الموظف في السفارة مثلاً. لكنها هبّت واقفة ودخلت المنزل، وعبرت الردهة إلى المكتبة.

كانت ماريا قد بدأت لتوها بتنظيف المكان، لكنها أطاعت سيدتها الشابة وخرجت لتعود فيما بعد.

حين أصبحت وحيدة، أخذت آبي تفتش بين أوراق ڤاسكو. ما تفعله بشع، وحقير، وتعرف هذا. . لكن لا يهمها ذلك.

راحت تفتش عن مغلف أزرق آخر، ووجدته بين الأوراق. وضعته على السجادة الصغيرة قرب المنضدة، وتأملت خط ديلا، الذي لا يمكن أن تخطئه أبداً. كان المغلف فارغاً، ولا أثر لمحتوياته. . ولم تعرف آبي هل تأسف لهذا أم ترتاح.

وقفت متصلبة، وهي تمسك المغلف بيدها. إذن، لقد راسلت ديلا ڤاسكو منذ شهر. لكن هذا لا يعني شيئاً بالضرورة. . ربما ادعاءات

أخرى.. كل ما أرادت ديلا أن تقوله له حين كان في لندن.

لكن الرسالة وصلت منذ شهر... ومنذ شهر استقل ڤاسكو الطائرة إلى ماناوس، من دون إنذار مسبق.

تمسكت بحافة المنضدة، وقد تملّكها دوار مفاجيء، وشعرت في الوقت نفسه بغثيان يرتفع إلى حنجرتها.

أطلت ماريا من الباب، وصرخت مجفلة: «كوم ليستسا؟ أو.. سنيورا!!».

وبسرعة، أخرجت قماشة تنظيف من جيبها وضغطتها على فم آبي، قبل أن تحثها على السير في الممر إلى غرفة نومها.

انحنت آبي فوق المغسلة، وتقيأت إلى أن دارت الدنيا بها ولم تعد ترى بوضوح الخادمتين اللتين تراقبانها بلهفة من على الباب.

قالت بالإنكليزية، بأدب وتحفظ: «أنا بخير.. حقاً. لقد أصبت لتوي بصدمة..».

ثم انزلقت بهدوء لتغرق في عتمة تامة.

قال الدكتور آروپا بلطف: «لم يكن هناك داعٍ لزيارتي في العيادة دونا آبيغايل، لو أرسلت لي رسالة، لجئت شخصياً إلىَ الغازندا».

احمّر وجه آبي وقالت: «أوه.. كنت مضطرة إلى المجيء إلى المستوطنة اليوم.. ولم أرغب في أن أتسبب لك بمتاعب لا لزوم لها. وأنا واثقة من أن كل شيء على ما يرام.. وأن هذا أمر تافه.. ربما بسبب شيء، أكلته».

ضحك دكتور آروپا: «لا دونا آبيغايل.. أعتقد أنك تعرفين حقيقة الأمر مثلي تماماً».

وغمزها بمرح: «ما رأي ڤاسكو؟ لا شك أنه مبتهج».

أحست آبي بضيق في حلقها: «إنه لا.. يعرف بعد».

وشبكت يديها في حجرها ثم أضافت: «إنه في ماناوس.. منذ شهر

تقريباً».

قطّب الطبيب حاجبيه قليلاً: «لدي صديق في ماناوس وهو طبيب نسائي يمكنه أن يفحصك ويجري لك بعض الفحوصات لفقر الدم وما شابه».

وابتسم لها، قبل أن يتابع كلامه:

ـ ڤاسكو على أي حال صديقي. وأريد أن أطمئنه على زوجة سعيدة وطفل سليم.

فردّت آبي بابتسامة شاحبة: «أجل.. طبعاً».

نظر دكتور آروپا إليها متفحصاً، ونقر على منضدته بقلمه.. ثم سأل بهدوء: «هل هناك ما يقلقك؟ هل أنت قلقة بسبب الحمل أو الولادة؟ لقد سمعت دون شك قصة دونا بياتريس.. وأنت خائفة من أن يتكرر الأمر ذاته».

هز رأسه وأضاف: «استريحي سنيورا وابتهجي، واسمحي لنفسك أن يُعتنى بك، وأطيعي أوامر من يفكر بمصلحتك من قلبه. لكن لا تصبحي كالعاجزة. تناولي نوع الطعام الذي يروق لك، واستريحي حين تشعرين بالتعب.. هكذا ستأخذ الطبيعة مجراها».

لقد جعل الأمر بسيطاً جداً.. هذا ما أخذت آبي تفكر فيه وهي تشق طريقها عبر الناس في غرفة الانتظار المكتظة. واستطاعت أن تسمع صوت المطر المتساقط على السطح المصنوع من الحديد.. تنحّت امرأة هندية من عند الباب لتسمح لآبي بالمرور، وجسمها المنتفخ يجعل حركتها صعبة في فستانها القديم المعرّق. وابتسمت لها وتمتمت بالشكر، فارتسمت على وجه الفتاة ابتسامة تكاد تنير الدنيا.

وعرفت آبي أين يمكن أن تعيش.. في أحد تلك المنازل المتداعية القائمة على ركائز خشبية فوق نهر ريوتشو نيغرو ذاته. ولعل زوجها أحد المحظوظين الذين يكسبون ما يكفي لقوت عائلته. لكن بدا على وجه

الفتاة المتوهج الجميل أن الطفل القادم محبوب ومرغوب فيه.

وقفت آبي أمام الباب، وشدّت وشاحها الواقي من المطر، ثم وضعت القبعة على رأسها لتقي شعرها سيل المطر الذي حوّل شوارع المستوطنة الموحلة أصلاً، إلى نهر برتقالي يتحرك ببطء.

كان المطر يهطل يومياً منذ سفر ڤاسكو، ليزيد من إحساس آبي بالضيق والعزلة. وفي كل يوم يمضيه بعيداً عنها، كانت تزداد قناعة، بأن لغيابه علاقة بديلا.

كانت آبي تعرف ابنة عمها جيداً لتدرك أن ديلا لن تترك شيئاً تافهاً كمراسم الزواج يقف حائلاً بينها وبين أي شخص تريده.. ومع أن أساليبها صدمت ڤاسكو وزادته مرارة، إلا أنه من الواضح أنه لا يزال يهتم بها. وظنت أنها ستموت ذلاً حين أدركت أن ديلا أخبرته بكل حقد، عن حبها له.. لكن ما عانته من هذا، لا يقارن بالعذاب الذي تشعر به لأن حبها له، ليس كافياً لجمعهما معاً.

ارتجفت وهي تخطو على الرصيف الخشبي الخشن، وكتفاها محنيتان لمعاكسة المطر. لقد طلبت من آغنيلو أن ينتظرها قرب مخزن البيع العام، فهي لا تريده أن يعرف أنها قصدت عيادة الدكتور آروپا.. وكانت الخادمات يرمقنها بنظرات أمل منذ اغمائها الغبي، ولا تريد تأكيد تخميناتهن أكثر.

لا بد أنه يريد طفلاً يحمل اسمه، ولكن لا مستقبل لهما معاً، خاصة إذا ظهرت ديلا على الساحة مجدداً.

وإذا قلت له إنني لست حاملاً، سيتركني أرحل.. وأحست بالألم للفكرة.

لكنها أرادت أن تكون من يتركه، فهي لا تريد أن يقرر ڤاسكو وديلا ما هو الأفضل لها، ثم اعلامها بذلك. وإذا ظنّ ڤاسكو أنه سيسعد مع ديلا، فهي لن تقف في طريقه.

لو لم أتوسط بينهما، لما حدث كل هذا.. لذا أقل ما يمكنني أن أفعله، هو أن أختفي خلسة.

فكرة ما ينتظرها جعلتها تجبن، فلا عمل ينتظرها ولا بيت يأويها في لندن، وسرعان ما ستصبح أماً وحيدة. ولم يكن لديها أيّ أوهام عن الصعوبات التي ستواجهها. لكن البقاء في ريوتشو نيغرو أكثر صعوبة، لأن ڤاسكو سيبقى معها بدافع الواجب.

إنما سيكون معي طفله، جزء منه، كي أدلله وأحبه دائماً.

أحسّت بيد على ذراعها: «مرحباً!».

وابتسم لها لينك دالتون: «لقد اخترت يوماً رائعاً فعلاً.. مهما كنت تفعلين هنا؟».

هزت آبي كتفيها مراوغة: «مجرد بعض.. التسوّق.. تعبت من التحديق بالجدران الأربعة ذاتها.. وأردت أن أغيّر المناظر».

ـ حسن جداً.. لقد حصلت على مبتغاك بالتأكيد.

وأمسك ذراعها ليقودها على الرصيف.

ـ لماذا لم ترسلي رسالة إلى لاراكوكا؟ لجئنا معاً كما سبق واقترحت عليك.

عضت آبي شفتها وردّت: «أوه.. كان القرار وليد لحظته».

فقال: «حسناً.. كلانا هنا الآن، فلماذا لا نمرح قليلاً.. وأريك البلدة؟ تعالي نحتسي شراباً ونشاهد الفيلم الذي أخبرتك عنه».

تراجعت آبي: «آغنيلو ينتظر ليعيدني..».

ـ ليعيدك إلى الجدران الأربعة ذاتها. دعيه يذهب! سأعيدك بنفسي فيما بعد.

وابتسم لها: «هيا سنيورا.. استرخي واستمتعي بوقتك. حين لمحتك الآن، بدوت أكثر بللاً من المطر!».

ولم تتغير لهجته وهو يكمل سائلاً: «هل لا يزال ڤاسكو في المدينة

الكبيرة؟».

أجبرت نفسها على الابتسام، وأجابت: «أجل. حسن جداً، ربما سيكون هذا مسلياً».

لكن تعبير آغنيلو، حين كشف لينك عن خطتهما، عكس رؤية مختلفة. فقد قطب حاجبيه بعدم موافقة مصدومة، وانفجر بالكلام باللغة البرتغالية.. ولم يكن لدى آبي فكرة عما يقول، لكن النظرات التي رماها بها، لم تحتج لتفسير.

ولامست ذراع لينك قائلة: «ربما ليست فكرة جيدة على أي حال».

فقال لينك بشيء من نفاد الصبر: «أوه.. لا تعيري آغنيلو انتباهك.. بعض هؤلاء البرازيليين أكثر عناداً وتزمتاً من التزمّت نفسه... كنت أظن أن الفتيات الإنكليزيات أكثر تحرراً..».

وأضاف بتعمد غريب: «إضافة إلى هذا، يمكنك تصوّر ما يفعله قاسكو الآن في ماناوس، لا أظنه الآن يحضر قداساً في كنيسة».

أحست بضيق في حلقها فجأة: «لا..».

واستدارت إلى الرجل الآخر قائلة: «كالما آغنيلو.. ايستابيم».

أشار تعبير وجهه إلى أنّ الأمر ليس على ما يرام. لكنه لم يحاول أن يمنعها، بل رفع قبضتيه نحو السماء الممطرة، وصعد إلى الجيب وانطلق.

بقي لينك وآبي ينظران إلى بعضهما، وقالت: «أشعر أنني جريئة.. أوليس هذا منافياً للعقل؟».

- إذا ما جعلك تبتسمين، فلن يكون منافياً للعقل أبداً.. أعتقد أن الخطوة الأولى في البرنامج هي احتساء المرطبات. هناك مقهيان: أحدهما جيد والآخر رديء.. ولسوء الحظ، للوصول إلى المقهى الجيد علينا اجتياز هذا النهر الذي يدعونه شارعاً.

أجبرت آبي نفسها على اعتماد لهجة مرحة: «إذن، دعنا نذهب إلى الرديء».

وضحك.

- في الحال سيدتي.. لكن لا تقولي إنني لم أحذرك!

أدركت آبي على الفور أنّ عليهما أن يخوضا في الوحل.. لكن الشكوى مما يحيط بها سيجعلها تبدو غبية. وهكذا جلست إلى طاولة متسخة أشار إليها لينك. كانت زجاجتا المرطبات باردتين ومنعشتين، لكنها راحت تنظر بارتياب إلى الكأسين المقدمين.

قال لينك ساخراً: «ليس المكان المناسب للسنيورا دونا آبيغايل زوجة المزارع المهيب».

وكان في صوته نبرة ضايقتها. فقالت بهدوء: «أرجوك، لا تتكلم عن زوجي هكذا».

بدا نادماً: «أنا آسف.. أعتقد أنني لن أعتاد على فكرة أنك متزوجة فعلاً من ذلك الرجل».

فكرت آبي بمرارة: ولا أنا.. لكنها بقيت ساكتة.

- نطاق آخر ممنوع.. هه؟

ورفع يديه استسلاماً..

- ولكنك لن تستطيعي لومي على طرح السؤال.. فالجميع يحب الألغاز.

وردت بوقار: «لا أرى ما هو الغامض في زواجنا».

بقيت عيناه على وجهها وهو يقول: «لا.. ما عدا أن هناك أشخاص حولهما، بمن فيهم أنا، قد يقسمون أن اسم عروس قاسكو هو ديلا.. إلا إذا كان اسمك الأوسط، طبعاً».

أبقت صوتها ثابتاً وهي تجيب: «لا.. ليس كذلك.. أعتقد أن هناك لغط ما، في مكان ما».

- حسن جداً.. وصلنا الاسم من قاسكو نفسه.. ولا بد إذن أنه هو

المشوش الفكر.. لعلها إحدى نتائج الوقوع في الحب.

حاولت تغيير الحديث إلى مسائل أكثر أمناً: «أوليس لديك خبرة كبرى في هذا الميدان؟».

- لا.. لأنني لطالما تجوّلت بسرعة. وليس من السهل الالتزام بشخص ما حين لا يعرف المرء أين سيستقر في الأسبوع المقبل.. هذا عدا السنة المقبلة.

- لكنك مستقر هنا.. ألست كذلك؟ لديك عملك..

صحح لها: «لديّ وظيفة سرعان ما ستنهار. إذ لم يعد جيروليتو يتظاهر بالاهتمام.. جلّ ما يريده هو أن يبيع، ويرحل. قصد ماناوس منذ بضعة أيام لعقد صفقة، لكنه لم ينجح.. وكادت «الأرملة السوداء»، وهو كما تعرفين اسم لأنثى عنكبوت سام تأكل زوجها، تفقد صوابها حين عرفت.

- ولماذا؟

هز كتفيه وأجاب: «لعلها ليست مستعدة للاستسلام بعد».

لمست آبي قطرة ماء باردة على الكأس من الخارج، وقالت:

- لاراكوكا منزل جميل.

- إنه كذلك فعلاً.. لكنني لم أكن أتكلم عن لاراكوكا بل عن زوجك. إنها تريده سنيورا أو حصلت عليه.. ربما بعد شجارها مع جيروليتو ستحاول أن تبدأ من جديد وتعود إلى ساوباولو. فهي ليست من النوع الذي يقف في الصف في انتظار رجل، لأنها تحب أن تكون صاحبة المبادرة.

فكرت آبي بجمال لويزا المستبد وأحست بالوهن.

- أنا واثقة من هذا.

وكان في لهجة لينك شيء حيرها، فنظرت إليه غير متأكدة وسألته:

- وهل يزعجك هذا؟

قال باختصار: «لست سوى مساعد مأجور، وهي لم تدعني أنسى هذا يوماً.. حسناً، أنا لا أقف في الصف أيضاً».

فعقدت حاجبيها وقالت: «أنا آسفة».

- لا داعي للأسف، ليس لدي أي وهم، ولم يكن لديّ يوماً.

نظر إليها مفكراً: «الحياة أسهل هكذا، سنيورا دونا آبيغايل. دعي بعض أوهامك تتبدد أنتِ أيضاً».

نظرت آبي حولها مرة أخرى وقالت: «لا أعتقد أن لدي الكثير منها».

زاد إحساسها بالاضطراب وهي تلاحظ نظرات فتاتين تجلسان إلى طاولة أخرى. كانتا ترتديان ثياباً رخيصة وتضعان زينة خليعة، أمّا تعبير وجهيهما فبدا غير ودي.

دفعت عنها كأسها: «أعتقد أنه غير مرحّب بي هنا».

لحق لينك بنظرتها، وتأوه: «أنا آسف.. ما كان عليّ أن آتي بك إلى هنا. لكن ما من خيارات كثيرة. هيا بنا.. سنشتري ما نأكله».

حين خرجا، وجدت آبي أن المطر توقف أخيراً، مع أن الريح اشتدت ساخنة. وأخذها لينك إلى كشك في الشارع تظلله مظلة صغيرة، حيث قدّمت لهما امرأة سمينة، حساءً بطعم القريدس والثوم.

قال لها لينك بمرح: «اسمه تاكاكا، جربيه.. إنه جيد».

وبعد لقمة أولى مترددة اكتشفت أنه لذيذ. وراح لينك يحدّثها عن الأماكن التي زارها، والأعمال الأخرى التي قام بها. لكنه أضاف إلى رواياته تفاصيل شخصية، فهو وحيد بكل تأكيد، والمهنة التي اختارها تؤكد هذا.. وحتى إن كانت لويزا منجذبة إليه، من الصعب أن يبقى هنا. لكن، كل شخص يختلف عن الآخر.. فليس الجميع مثلها، ملتزم برجل واحد مهما كان الثمن.. وهذا على الأرجح أمر جيد. وكتمت الأفكار التي بدأت تراودها.. فمن الأفضل أن تفكّر في مشكلة شخص آخر بدلاً من مشاكلها.

كانت تدرك أنه لا يجدر بها أن تتجوّل معه هكذا. فالنظرات المتسائلة تلاحقهما مع كل خطوة، لكن لا مفرّ من هذا لأنهما ليسا برازيليين، بل غريبين.. دخيلين.

بدا جلياً أنّ رفقة لينك لم تخرجها من بؤسها. وفكّرت ألا ترافقه لحضور الفيلم، وأن تطلب منه بدلاً من ذلك أن يعيدها إلى الغازندا.. لكن لا شيء ينتظرها هناك سوى الفراغ والوحدة.. هنا على الأقل، قد تنسى وحدتها بعض الشيء.

كان العرض السينمائي تجربة بحد ذاته. وصالة العرض كوخ من التنك.. هذا ما قاله لينك. لكنه بالغ في قوله، فالمبنى عبارة عن سقف حديدي مضلع يقوم على دعائم مترنحة، ومقاعد خشبية طويلة أمام شاشة عتيقة. وبدا أن جميع سكّان المستوطنة هناك.. النساء على المقاعد وأولادهن إلى جانبهن أو في أحضانهن، والرجال يتسكعون في الخلف ويدخنون. بدأ البرنامج بنشرة أخبار مصورة.. وبعد عرض مطوّل عن مصنع جديد ومناورات عسكرية في الشرق الأوسط، لمحت آبي أميرة وايلز التي بدت فاتنة. في يوم ما.. منذ مدة طويلة، وقفت في مقدمة الجموع تراقب العروس الملكية تمر، في طريقها إلى كنيسة القديس بولس، وفكرت في لندن، ورائحة الشوارع بعد المطر، المختلفة تماماً عن الرائحة الثقيلة الرطبة المزعجة التي تتصاعد من الغابات هنا. وأخذت نفساً عميقاً... أشياء كثيرة قد تجد صعوبة في أن تنساها، وهذا أقلها.

تبع العرض الإخباري، مسلسل يعود إلى أيام صناعة المطاط الشهيرة، ويقدّم بطلة، يتساوى غباؤها مع سذاجتها، وهي تقاوم تحرشات البطل الثري الوسيم، التزاماً منها بنذورها لدخول الدير.

حبذا لو أن الأمر بسيط هكذا.. وتنهدت آبي.

سأل لينك، وقد أدرك تململها المفاجيء: «هل اكتفيت؟».

قالت: «لا، من الأفضل أن نحصل على ما يساوي مالنا».

كان الفيلم «قصة الحي الغربي» وبدا واضحاً أنّ المشاهدين يعرفونه كحالها هي. وتمنت لو أنّ العرض أكثر مرحاً، فمع وصول القصة إلى المأساة المحتمة في النهاية أحست بالدموع تحرق جفنيها.

قال لها لينك فيما بعد وهما يسيران نحو الجيب:

ـ تبدين هادئة جداً، أردتك أن تقضي وقتاً جيداً.

أكدت له بإشراقة زائفة: «أوه.. لقد استمتعت».

ابتسم: «بالتأكيد».

ساد الصمت بينهما وهما يبتعدان عن المستوطنة. كان انتباه لينك مركزاً بعبوس على الطريق الذي يحتاج إلى كل انتباهه.. وأجفلت آبي عند سقوط السيارة في حفرة أخرى في الطريق.

وحاولت أن تسترخي لشدة ما تملكها الضجر، وسمحت لأهدابها بأن تنسدل على خديها.. وبدا أن الوقت يمر.. وأحست بسرعة الجيب تخف، حتى توقف، ففتحت عينيها، وجلست: «هل وصلنا؟».

لكنها لم تستطع أن تميّز مكانهما. كانت أنوار الجيب تضيء الطريق، والأشجار المحيطة.. وما من أثر لأنوار نوافذ أو أي مكان سكني.

نظرت إلى لينك بقلق، وقد بدا عليه ما لا يمكن التفكير فيه.. ومع ذلك لم تستطع أن تصدق.

لم ينظر إليها، وهو لا يزال يمسك بالمقود.

وقال بصراحة: «لقد قلت لك ونحن في المقهى، إن وظيفتي تكاد تنتهي.. ولن أنتظر حدوث ذلك فأنا راحل، وقريباً. وما أريد أن أعرفه هو.. هل ترغبين في المجيء معي؟».

شهقت: «هل أنت مجنون؟».

ـ أحياناً.. لكن ليس الآن.. هل ستقولين لي إنك متزوجة؟ أعرف هذا، وهل ستقولين لي إنك سعيدة؟ لا أصدقك.

أخذت آبي ترتجف في داخلها وأجابت: «أنا لا أفهم شيئاً من هذا».

صحح لها: «بلى.. تفهمين يا حلوتي.. أنا أقدم لك عرضاً. كلانا ضائع هنا في ريوتشو نيغرو، لذا، لماذا لا نرحل؟».

استدار لينظر إليها نظرة صريحة وقال: «أنت لا تخدعين أحداً بزواجك هذا، سنيورا داكاراڤالو.. أوه بالتأكيد، ڤاسكو يلعب دور الزوج المحب، لكنه يفعل ذلك لأنه يعرف أن لويزا نصبت لك فخاً».

مررت آبي لسانها على شفتيها الجافتين وسألته: «هل.. دفعتك لويزا لهذا؟ هل تريدني أن أرحل كي تحصل على ڤاسكو؟».

بدا مدهوشاً حقاً: «يا إلهي.. لا! منذ شجارها مع جيروليتو عرفت ما هو أفضل لها.. لا.. لقد أثرت فضولي منذ أول يوم يا آبي. أنا لم أر من قبل فتاة متزوجة حديثاً تبدو.. غريبة مثلك».

تعالى الاحمرار إلى وجهها: «هذا غير صحيح...».

قاطعها بلطف: «أوه.. توقفي عن خداع نفسك.. لا يمكنك كتم أي سرّ هنا. وأنت وڤاسكو لم تستخدما غرفة النوم ذاتها منذ جئت إلى هنا، أضيفي إلى هذا التناقض الصغير في الأسماء.. ونحصل بهذا على قصة جيدة».

ضغطت آبي يديها على وجهها المحترق، وقالت بغضب: «حسن جداً، أرجو ألاّ تضيع ليلة نوم بسبب هذا.. أنا راضية تماماً...».

قال بصوت جاف: «لعلك راضية يا حلوتي.. لكنني أؤكد لك أن ڤاسكو ليس راضياً.. فهو لن يستعجل في العودة من ماناوس.. أليس كذلك؟ ألا تريدين أن تعرفي لماذا؟».

هزت رأسها من دون كلام.. مذعورة مما ستسمعه.

مد لينك يده يداعب خصلة من شعرها قائلاً: «آبي.. ما الفائدة من الاختباء وراء ظل إصبعك؟ الرجل يغشك. لقد شاهده جيروليتو يخرج من أحد أفخم الفنادق في المدينة مع شقراء مذهلة. ولم يستطع أن يصدق،

معظم الرجال هنا يقنعون بفتاة أوروبية واحدة، إنما اثنتين؟».

وهز لينك رأسه.

قالت آبي عبر شفتين متصلبتين: «لا يمكنك أن تؤكد أنها أوروبية.. لعلها إحدى الفتيات...».

رد عنها وهو يهز كتفيه: «فتاة هوى؟ ربما، لكن إذا كان هذا صحيحاً، فقد قطعت مسافة طويلة لتمارس عملها الحقير. ذهل جيروليتو حين رآه فدخل الفندق وسأل عنها، وانتزع من الموظف قصة جيدة...».

صمت قليلاً قبل أن يتابع: «يبدو أنها السنيورا ويستمور من لندن.. وستقيم إلى أجل غير مسمى».

***

٩ ـ عقاب لا مفر منه

كانت آبي قد قرأت في مكان ما، أنّ المحكوم عليه بالإعدام يرحّب بيوم تنفيذ الحكم لأنه يضع حداً لخوفه الرهيب، لكنها لم تصدّق.

ولعل الشك إلى ما لا نهاية أسهل عليها من اكتشاف أن مخاوفها كلها تحققت، وأن ديلا في البرازيل، وقد عادت إلى حياة ڤاسكو وقلبه.

وفكرت متألمة: هذا إذا ما ابتعدت يوماً عن حياته وقلبه.

ـ هل يعني اسمها شيئاً لك؟

كانت قد نسيت الرجل الجالس إلى جانبها بهدوء، وهي تحارب موجة الألم والحزن التي ارتفعت داخلها.

أحست بحلقها مشدود وهي تبتلع.

ـ لا شيء. هل.. هل تسمح أن تعيدني إلى الغازندا.. أرجوك؟

ـ الآن؟

وكان في صوته رنة ذهول.

ـ ألن تعطيني ردك أولاً؟

رددت دائخة: «رد؟».

كيف تستطيع أن ترد على سؤاله وهي تتمزق من الداخل؟

وقال بنفاد صبر: «على اقتراحي.. لا يمكن أن تخططي مع ذلك الرجل آبي.. ليس بعد الآن».

كان في ما قاله حقيقة مؤكدة، واعترفت في سرّها بهذا الواقع المرير.

فما إن يعود ڤاسكو من ماناوس، حتى تقول له إنها سترحل.. وتوفّر عليه أن يطلب منها الرحيل.

مد لينك يده يمسك يدها، وقال يحثها: «إذن.. لماذا لا تأتين معي؟ لم تكن ريوتشو نيغرو محطة سعيدة لنا، وسأعتني بك آبي.. سأوفر لك وقتاً طيباً.. ولن أستعجلك، بل سأتركك تملين شروطك».

إنه جذاب.. ولعل الهرب معه مخرج.. إنقاذ لكرامتها على الأقل.

كانت أصابعه دافئة على أصابعها.. لكن هذا كل ما شعرت فيه. وأحست بالفراغ، والتجرد من كافة الأحاسيس.

فكرت.. لن يكون هذا عادلاً.. وأدركت حين سمعت أنفاسه الحادة أنها تكلمت بصوت مرتفع.

وترك يدها.

ـ وما هو العدل في هذه الفوضى اللعينة؟ لا تقرري الآن آبي.. امنحي نفسك بضعة أيام، لدي أمور أنجزها في لاراكوكا.. يمكنك أن تبعثي لي برسالة متى شئت.

لكن، ليس أمامها بضعة أيام.. وأعاد تشغيل محرك الجيب.. يجب أن تهرب الآن.. لكن كيف؟ فهذا المكان يختلف عن لندن بقطاراتها، وأنفاقها، وسياراتها.. ولن تستطيع الهرب هكذا، لكنها لن تلجأ إلى لينك ليساعدها. كان كل شيء في داخلها يتخوّف من مثل هذا الحل، حتى من الاستعانة به كمجرد رفيق سفر.

يبدو أنها مضطرة للاعتماد على ڤاسكو، الذي يساعدها على السفر، في مثل هذا الظرف.

وفكرت مخدرة الإحساس: وهذا هو الخزي الحقيقي.

أكملا بقية الرحلة بصمت.. وأحست آبي بنظرات لينك الجانبية نحوها من حين إلى آخر. لكنها لم تحاول الرد، إذ أحست بتعب شديد.. لا سيّما وأنّ دماغها يدور في الدوامة الرهيبة ذاتها.

www.elromancia.com

وأخيراً حين بدت أنوار الغازندا عبر الأشجار، راحت نبضات قلبها تتسارع بشكل غريب.

ومع توقف الجيب أمام الشرفة، تطلع لينك إلى الأمام بدهشة، وصاح: «لقد عاد!».

فردت آبي بصوت مثقل: «أجل».

فتحت بابها على مضض، ثم نزلت إلى الأرض، وعيناها شاخصتان على الطيف الأسود المسترخي على الشرفة.

تقدّمت إلى الدرج المؤدي إلى الشرفة، فأنزل ڤاسكو ساقيه من على الطاولة ووقف احتراماً. كان يبتسم، لكن آبي شعرت بغضبه ملموساً كقبضة مشدودة.

قال بصوت ناعم: «بوم فيندو.. أهلاً بك كارينا».

أحست آبي أن لينك تقدّم إلى جانبها: «لم أكن أتوقعك».

رد بلطف: «هذا ما لاحظته، مساء الخير لينك.. أعتقد أن عليّ أن أشكرك لمرافقتك زوجتي».

فقال لينك بصوت صريح: «في غيابك».

واشتد فم ڤاسكو وهو يقول: «هذا صحيح.. سأحرص على تجنّب الغياب مجدداً».

وضع لينك يديه على وركيه، وواجهه بمشاكسة: «تبدو هذه فكرة جيدة».

تابع ڤاسكو: «لكن.. يجب ألاّ تعيقك، فأنا واثق من أن لديك واجبات تشغلك في لاراكوكا.. وأنا وزوجتي نرغب في الاحتفال بجمع شملنا».

قال لينك: «أوه.. حقاً؟ ربما لدى آبي أفكار أخرى».

واستدار إليها سائلاً: «ما رأيك؟ هل تريدين أن أبقى؟».

فقال ڤاسكو بأدب، إنما بلهجة قاطعة باردة: «القرار ليس لها..

وبالنسبة لك، زوجتي اسمها سنيورا داكاراڤالو.. أرجوك تذكر هذا».

بدأ لينك يقول: «لعلك من يحتاج للتذكير..».

لكن آبي أمسكت ذراعه، وقالت بلهفة وبؤس: «لا! اذهب لينك.. أرجوك».

تردد لحظة وعلى وجهه تعبير صريح، ثم هز رأسه: «حسناً عزيزتي.. لك ما تريدينه».

وأخفض صوته ليضيف: «لكن لا تنسي.. كل ما يلزمك هو رسالة».

وهدر محرك الجيب مجدداً، واختفى في الظلام، تاركاً الزوجين يواجهان بعضهما البعض بصمت.

لن أقف هنا كالبلهاء.. وأحست آبي بغضب مفاجيء، وتقدمت باتجاه الباب الأمامي، لكن ڤاسكو سدّ عليها طريقها.

- إلى أين أنت ذاهبة؟

نظرت إلى ألواح الخشب في الشرفة وأجابت: «إلى غرفتي.. أنا متعبة».

قال بخفة: «أوه.. لكنك لن تستطيعي الهرب كيريدا.. لقد مضى وقت طويل لم نر فيه بعضنا، ولدينا الكثير لنناقشه».

وأشار بيده إلى المقاعد والطاولة على الشرفة.

- ستشربين القهوة معي.. أليس كذلك؟

وصفق بيديه يستدعي أنا.

فقالت آبي يائسة: «لا أريد الكلام الآن».

يبدو أن لحظة المواجهة حانت، ولن تستطيع مواجهتها.

- أرجوك ڤاسكو..

رفع حاجبيه سخرية وقال: «نستطيع أن نتكلم في غرفة النوم إذا شئت؟».

وجذب كرسياً ثم قال بأدب: «فاز فافور.. دو سانتارسي».

أسعدها أن تجلس لأن ساقيها أخذتا ترتجفان فجأة، وجلست متصلبة على الوسائد، تنظر إلى الظلمة، والصمت يطبق عليهما. ورمقته بنظرة جانبية. فرأته يخرج سيكاراً طويلاً من جيب قميصه ويشعله.

نادراً ما كانت تراه يدخن.. لعله متوتر أيضاً، ولا يستذوق الحديث مثلها تماماً.

جاءت آنا بالقهوة، ووضعت الصينية على الطاولة ثم اختفت بسرعة، وعيناها تتنقلان من وجه متجهم إلى آخر.

انتظر ڤاسكو لحظة لتصب آبي القهوة، لكن حين لم تتحرك، قام بالمهمة بنفسه وأعطاها فنجاناً.

قال بحدة: «اشربيه.. يبدو أنك تحتاجين إليه».

رفعت آبي الفنجان إلى شفتيها، وابتلعت بعضاً من السائل الساخن الذكي الرائحة.. وتمكنت بمعجزة، أن تبقي يديها ثابتتين، وهي تعي أن ڤاسكو يراقبها.

أخيراً قال بنعومة: «حسن جداً مينا اسبوسا! أليس لديك ما تقولينه لي؟».

لديها الكثير لتقوله... إنه يخطط لإنهاء حياتها، ليعيدها إلى بلادها كهدية غير مرغوب فيها، وها هو يجلس هنا، يشرب القهوة، وشبه ابتسامة ترتسم على شفتيه. وعصف الغضب بها.. وفكرت بجنون في ما قد يفعله لو رمت بنفسها عليه، ترفسه، وتعضه، وتلكمه بقبضتيها.

لكنها لم تستطع أن تفعل هذا، حفاظاً على ما تبقى لها من احترامها لذاتها. وعليها أن تلعب الدور ببرودة أعصاب.

مررت لسانها على شفتيها الجافتين وقالت: «أنت.. طلبت مني أن أفكر بأمر زواجنا.. حسن جداً، لقد فكرت.. وقررت أن أتركك.. وأن أعود إلى انكلترا».

شربت المزيد من القهوة وأضافت: «لذا، أرجو أن نقوم بالترتيبات

اللازمة».

فقال بعد صمت طويل: «تجعلين الأمر يبدو سهلاً.. هل فاتك سنيورا، أنني قلت لك إنّ أي قرار يجب أن يكون مشتركاً؟».

أعادت فنجان القهوة بحرص إلى الطاولة وقالت: «لا، لكن هذا ما يريده كلانا.. يجب أن يكون..».

قاطعها بصوت مثقل بالسخرية: «ديسكوليي آبيغايل.. أنت مخطئة، ليس لدي النية في أن أدعك ترحلين.. في الواقع لدي أفضل سبب يجعلني أحتفظ بك إلى جانبي».

ساد صمت آخر، ثم سألها: «حسن جداً.. أما زلت لا تجدين ما تقولينه لي؟».

لم تستطع آبي أن تفكر بكلمة واحدة، وأحست أنها مصدومة، ومرتبكة جداً.. ونظرت إليه فرأت أن القناع اللطيف المبتسم قد ولّى، وبدا غاضباً كمن يريد ارتكاب جريمة.

قال بخشونة: «إذن.. ستصغين إليّ.. حين عدت اليوم وجاء آغنيلو إليّ ليقول إنك لا تزالين في المستوطنة مع دالتون، قررت أن أذهب لأجدك.. وأن أعيدك».

رفعت رأسها بحدة وسألته: «وهل فعلت هذا؟ لكن لماذا؟».

ـ أليس الأمر واضحاً؟ لست في لندن آبيغايل. هنا لا تتجول امرأة متزوجة مع رجل غير زوجها.

واشتد احمرار وجهها، وقالت بصوت متوتر أجش: «هذا أسخف شيء سمعته في حياتي! وماذا عن الرجال المتزوجين؟ أعتقد أنه مسموح لهم أن.. يتباهوا بأنفسهم مع من يشاؤون.. من دون أن يلتفت إليهم أحد».

قال متجهماً: «هذه ليست المسألة التي نناقشها، سنيورا. في الواقع ذهبت إلى المستوطنة، ولم أجدك. وبدلاً من ذلك، قابلت صديقي

الدكتور جورج آروبا».

صمت قليلاً ثم قال بصراحة: «كان سعيداً لرؤيتي.. وأنا واثق من أنك تعرفين السبب».

راقب احمرارها يزداد وهز رأسه: «بالضبط».

همست: «أوه.. يا إلهي».

لو عرفت أنه سيكون هنا بانتظارها، لبقيت في الجيب مع لينك، وطلبت منه أن يأخذها بعيداً إلى مكان ما.. أي مكان.

ولسعها صوت ڤاسكو، وجعلها تجفل حين سألها: «لماذا استحال عليّ إيجادك؟».

استعادت صوتها بصعوبة: «ذهبنا إلى عرض سينمائي.. وشربنا المرطبات».

قطب حاجبيه: «المرطبات؟ أين؟».

حاولت أن تتذكر: «في.. الاوليندا.. أعتقد..».

فقال بهدوء شديد: «آه.. اصطحبك إلى هناك إذن.. حيث الحثالة.. ربما وجد هذا ملائماً».

صدر من حنجرة آبي صوت شهقة، ثم اختطفت فنجانها وهمّت برميه بمحتوياته، لكنه أدرك نيتها فتراجع. ومع ذلك، انسكبت القهوة على كتف قميصه وكمه، وأخذ يتمتم غاضباً، ثم قال بصوت خشن: «يجب أن تتعلمي درساً في الأخلاق سنيورا..».

تقدم خطوة نحوها، فتراجعت بعيداً: «لا تقترب مني!».

وبدا لها صوتها رفيعاً ومنوتراً.

رد ڤاسكو بصوت ناعم بارد: «ولا تقولي لي ماذا أفعل! أنت زوجتي آبيغايل. وستبقين هنا معي، رغم خطط عشيقك».

فقالت باحتجاج: «ليس عشيقي!».

وتقدّم منها، فعلقت بينه وبين حائط الشرفة، ولم يبق أمامها إمكانية

لتتراجع.

صحح لها ببرود: «ربما ليس بعد. في الواقع، لن يصبح أبداً، فأنت لي سنيورا.. وأظنك بحاجة إلى أن تتذكري هذا بطريقة لن تنسيها أبداً».

رفعها بين ذراعيه، وكأنها طفلة، وضمها إلى صدره، ثم حملها إلى المنزل، ترافقهما صيحات دون ألفونسو الحاقدة.

وراحت آبي تقول بصوت غاضب: «أنزلني! أتركني! وإلا سأصرخ لتسمع الخادمات».

ضحك ڤاسكو بخشونة: «اصرخي.. لن يأتي أحد لنجدتك، سيظنون أنني أعطيك الدرس الذي تستحقينه».

كانت الذراعان اللتان تمسكان بها أشبه بقبضتين فولاذيتين ما جعل مقاومتها تافهة. وسار ڤاسكو بها إلى غرفة النوم، ورفس الباب بقدمه، قبل أن يحملها إلى السرير ويرميها على الوسائد.

شهقت ورفعت نفسها على ركبتيها وصفعته على وجهه بما استطاعت من قوة. قوة الضربة أوجعت ذراعها، وتركت آثار أصابعها على بشرته البرونزية.

بقيت على ركبتيها، ورفعت رأسها إليه، وقد جمدت رعباً.. تنتظر رده.

قال، وكأنما لنفسه، وبسخرية مريرة: «وأنا من وعدت نفسي بأن أكون لطيفاً معك».

وأطبقت يداه على ياقة قميصها القطني، وفتحها بنوع من العنف المدروس.

قالت وهي بالكاد تتنفس: «أكرهك».

هز كتفيه دونما اكتراث، وسأل بسخرية: «إذن، ماذا لدي لأخسر؟».

لم يتصرف بوحشية، لكنه أفهمها بوضوح أنها تنال عقابها، ولم يظهر أياً من الأحاسيس الحارة التي أظهرها ليلة عيد ميلاده.. وبدلاً من ذلك،

تصرف بآلية ليحصل لنفسه على انتصار سريع ومهين.

وبقيت مستلقية غاضبة، مقهورة الإرادة.. تشعر بالخجل حتى أعماق روحها.

مر وقت طويل، ثم تنهد ڤاسكو بخشونة ورفع نفسه على مرفقه، ينظر إليها وهو يقول: «إذن.. أنت تفهمين ما أعنيه الآن يا آبيغايل؟ فصدقيني حين أقول لك إنك ستبقين معي، وتحملين هذا الطفل الذي تسببنا بوجوده، وأولادنا الآخرين.. ولن تفصل بيننا أشياء سخيفة كالأبواب.. من الآن وصاعداً، ستشاركينني هذا الفراش».

صدر عنها صوت ضعيف.. فقال:

ـ لا تروق لك هذه الصورة؟ كوى پينا! مع أن هذا الزواج مضجر، كارينا، إلا أنه موجود، وأنوي أن أجعله حقيقياً.

صمت قليلاً ثم تابع يقول: «على أي حال، أعدك أن أحصر رغباتي ضمن حدود معقولة، مرة في الأسبوع.. أوليس هذا هو التقليد؟».

أجفلت آبي للسخرية الوقحة في عينيه السوداوين. وإذا كانت الدقائق الأخيرة نموذجاً لما يطلب منها أن تحتمله، فهي غير قادرة على ذلك، ليس بعد ما فعله.

قالت بصوت أجش: «وماذا عن ديلا؟».

جمد لحظات، ثم قال بهدوء: «آه.. لا شك أن رسالتك في المغلف.. كان عليّ أن أدرك هذا..».

صمت قليلاً ثم قال: «لا داعي لأن تهتمي بها. كل ما يهم هو حياتنا معاً.. وصحة الطفل».

قالت بحنجرة جافة: «أتقول هذا؟ وهل يمكنك استبقائي هنا وأنت تعلم...».

ولم تستطع أن تكمل.

فقال بقسوة: «تعرفين لماذا أنت هنا.. لقد سوينا هذا الأمر في

لندن».

ثبتت نظرها على وجهه الجامد وسألته: «وإذا لم يكن هناك طفل؟ هل تتركني أذهب؟».

تمطى وتثاءب قائلاً: «المسألة غير مطروحة.. سأستحم الآن.. هل ستتوجين جمع شملنا اللطيف بالاستحمام معي؟».

ـ لا!

ضحك: «هذا ما ظننته.. على أي حال، يمكنني أن أصرّ أو.. أن أقنعك بتغيير رأيك».

قالت بهدوء: «ألم تذلني بعد بما يكفي؟».

رفع حاجبه: «وهل تنظرين إلى الأشياء الحميمة الطبيعية في الزواج، كإذلال! يجب أن أعلّمك ما هو مختلف أمادا..».

جلس على السرير وعاد ليفتح أزرار قميصه وزاد عمق صوته الساخر:

ـ لكن، ربما في وقت آخر.. بعد أن تعتادي أكثر.. أو ربما بعد أن ترضخي لعلاقتنا الجديدة.

كلمة «رضوخ» جعلت آبي ترتجف في داخلها.

ـ أتعتقد أن هذا ممكن؟

ـ أعتقد أنه يجب أن يحدث، هذا إذا لم نرغب في تمضية بقية حياتنا في العذاب.

خلع قميصه ورماه أرضاً، ثم وقف ليتخلص من بقية ملابسه.

اتجه إلى الخزانة، وفتح أحد الأدراج الضخمة وأخرج أحد أثواب النوم لآبي، ثم عاد إلى السرير، وتركه يهبط على جسمها.

قال ساخراً: «هل رأيت كم أفكر فيك؟ أستري نفسك في هذا كيريدا، لن أزعجك مرة أخرى هذه الليلة.. لكن، أرجوك، لا تتوقعي مني أن أكون محتشماً مثلك».

ومرر من دون اكتراث، ظاهر يده على وجهها: «أنا لم أرتد بيجاما في

www.elromancia.com

حياتي، ولا أنوي أن أفعل الآن».

وصمت كأنه ينتظر ردة فعل منها. وحين لم تجبه، هز كتفيه واتجه إلى الحمام.

استلقت آبي جامدة، تنظر إلى السقف، وتصغي إلى صوت الماء.. وفكرت متألمة أنها تعرف الآن ماذا تتوقع منه، وهذه الحقيقة جمّدت الدم في عروقها.

يبدو أنه لم يعد يراوده أيّ شك حول زواجهما. وأخذ جسمها يحترق إحباطاً، فلا بدّ أنه يعتبر نفسه عملياً في موقف غير عملي.. لقد تزوجها بدافع الواجب.. والآن وقد جرى ما جرى، يحاول الاستفادة من الوضع كما يناسبه.

وهناك أيضاً ديلا لتفكر فيها. وتساءلت آبي عما إذا كانت ابنة عمها في ماناوس الآن، في الفندق الفخم تنتظر من ڤاسكو أن يعلمها أن زواجه غير المرغوب فيه، قد انتهى، وأنهما أصبحا حرّين ليعيشا معاً.

استطاعت تصور غضب ديلا حين سمعته يرفضها مرة أخرى. لكن هذا لا يعني بالضرورة نهاية العلاقة بينهما، وهذا ما ذكرت آبي نفسها به، بتعاسة.

لقد سبق وأظهرت ديلا أنها مستعدة لأن تصل إلى أقصى حدّ لتحصل على ما تريد، ولعلها تنوي البقاء في البرازيل، وعلى آبي أن تعوّد نفسها على زيارة ڤاسكو لها بين الحين والآخر.

جلست في الفراش ترتجف، وارتدت ثوب النوم.. لا يمكنها أن تصدق أنّ ديلا ترضى بالبقاء في ماناوس بينما يحتفظ ڤاسكو بامرأة أخرى في حياته. لكن، لم يخطر في بالها أيضاً أن ديلا ستأتي إلى البرازيل لتستعيده.. فمنذ البداية، على ما يبدو، قللت من تقديرها لقوة مشاعرهما نحو بعضهما البعض.

لكن، لعلهما قللا أيضاً من تقديرهما لها.. ومهما كانت دوافع

ڤاسكو للزواج بها، وإبقائها معه، يبقى أنها زوجته، وستكون أم ولده، وبالتأكيد يمكنها أن تستند إلى هذا... على أي حال، سوف تحاول.. ووعدت نفسها بهذا بقوة.

قد تبدأ محاولتها الآن.. ونزلت عن السرير، وسوّت الأغطية، ثم تقدّمت إلى طاولة الزينة، وتأملت نفسها في المرآة طويلاً.

لم ترتدِ ثوب النوم هذا من قبل، أو أياً من الأثواب الأخرى التي قدمها لها ڤاسكو. لكن، عليها أن تعترف بأنه جميل، وأنه اختير لها وحدها.. اللون المشمشي القاتم عكس الدفء على بشرتها الشاحبة، وتناقض مع شعرها البني بشكل ما كان ليحصل مع جمال ديلا الأشقر المتوهج.. كان الثوب شفافاً بشكل مغر، لكنه يغطي تفاصيل جسمها النحيل من دون أن يخفيها كلياً.

أدركت أن مياه الحمام قد توقفت، فأمسكت بسرعة بفرشاتها وبدأت تسرّح شعرها بضربات رتيبة طويلة.

كان شعرها يصل إلى كتفيها، وبدا ناعماً لامعاً كجناح الطير حين رجع ڤاسكو إلى غرفة النوم. خرج وهو يضع منشفة حول خصره ويجفف رأسه بأخرى، وراقبته آبي في المرآة من تحت رموشها، وشعرت بالإثارة في داخلها وهي تراقب حركة عضلات صدره وذراعيه.

بصمت، أرادته أن ينظر إليها.. أن يعي نظرتها إليه. وضعت الفرشاة من يدها بصوت مرتفع، ورفعت رأسها إلى الوراء قليلاً، تاركة شعرها يلوح وكأنه ستارة من حرير.. لكن، كل هذا ذهب سدى، كما أدركت بخيبة أمل مؤلمة، لأنه لم يلتفت إليها.. وبدا متعباً.. ومشغول الفكر.. والخطوط على خديه وفكه أكثر بروزاً من المعتاد.. وبالرغم من تصميمه على المضي في زواجهما، لم يبدُ سعيداً.. لكن كيف له أن يكون سعيداً؟

وماذا تفعل بحق الجحيم؟ أتلعب دور الغاوية غير المرغوب فيها؟

دخل ڤاسكو الفراش، ورتب وسائده لينام، مديراً ظهره لها، غافلاً

تماماً عن محاولاتها المثيرة للشفقة للفت انتباهه.

دموع مفاجئة أحرقت جفنيها، لكنها حاولت لجمها. اندست تحت الأغطية، تلتزم الطرف الآخر، حذرة لئلا تتطفل على ما لا يخصّها.

هذه المرة الأولى التي يتشاركان فيها الفراش ليلاً. لكن لم يكن في ذلك أيّ حميمية أو أحاسيس أو مشاعر. وأحست آبي كأنها ترسو على كوكب بعيد في عالم معادٍ مظلم. واستطاعت سماع أنفاس ڤاسكو، لكن هذا لا يعني شيئاً، لأنها حتى لو مدت يدها، ووصلت إليه فلن تجده بانتظارها.

وفكرت بسخافة أنه لم يتمنَّ لها ليلة سعيدة.

وتساءلت يائسة: كيف سأحتمل هذا؟

***

١٠ ـ مكنسة الساحرة

كان الطقس حاراً جداً، ورطباً. . فجلست آبي في مقعد خيزران على الشرفة تحرّك مروحة من أوراق الشجر المجدولة، صنعها لها آغنيلو، علّها تشعر ببعض الانتعاش.

لقد أثرت فيها مبادرته، فشكرته بلغة برتغالية متلعثمة. وبدا واضحاً أن كل من في ريوتشو نيغرو يعرف أنها حامل، ويتمنى لها الخير.

وكان هذا العزاء الوحيد المتبقي لها.

شعرت أنّ الأسابيع الثلاثة التي مرت عليها منذ عودة ڤاسكو من ماناوس أصعب أيام حياتها، فعلاقتهما متوترة أشدّ التوتر. وأحست أنها على استعداد لأن تثور غضباً عند أول مناسبة.

وذكرت نفسها بأنّ هذا لا يعني أن ڤاسكو لم يكن لطيفاً معها، بل على العكس، بدا مراعياً جداً لها، وقلقاً على صحتها، ومؤدباً أكثر من اللازم.

كانت تدرك عدم جدوى التفكير في الماضي. لكن، كانت الأمور لتختلف لو تزوجها للأسباب المناسبة، ولو أن طفلهما ثمرة حبهما، ففي ظروف مماثلة، لشكّل الانتظار مرحلة حلوة، مليئة بالدفء والضحك والترقب. . لو كان زواجهما طبيعياً، لاستطاعت التذمر بمرح من الغثيان الذي يتملّكها صباحاً، بدلاً من محاولة السيطرة عليه بيأس إلى أن يغادر ڤاسكو إلى المزرعة.

www.elromancia.com

ففي المرة الأولى التي حاولت فيها المزاح حول بعض تأثيرات حالتها الجانبية، نظر إليها باكتئاب، ثم قال بهدوء: «أدرك تماماً أنك تكرهين حمل طفلي.. فلا داعي لتؤكدي هذا».

وترك المنزل قبل أن تجد الكلمات المناسبة لتقول له إنها لم تعنِ هذا.. لم تعنه إطلاقاً.

لذا، حين راح يسألها عن حالها، اعتادت أن ترد أنها بخير حتى وإن لم يكن هذا صحيحاً. مثل هذا الصباح حيث استيقظت وهي تشعر بألم مبرح في ظهرها.

واعتقدت أنّ الامر ناجم عن وضعيتها السيئة أثناء النوم. ولوّحت بالمروحة بلطف؛ هل هذا عجيب وهي تقضي معظم لياليها في حالة من التوتر الفظيع ؟

لقد احترم ڤاسكو وعده بألاّ يزعجها. والحرارة التي أظهرها يوماً لم تعد سوى ذكرى، تبتعد وتمحى مع كل ليلة تمر عليها.

مع ذلك، كانت لا تزال تأمل بغباء أن يشفق ليلة عليها، ويبهج أحاسيسها بالحب الذي تتشوق إليه منه.

وفكرت متألمة في أنّ تصرفاته كلها تكشف عن اشمئزازه من القيام بواجباته الزوجية، وعن رغبته في أن ينهي الأمر في أسرع وقت ممكن.

تنهدت وحكّت ظهرها. إنها تتشوق إليه بحيث أنها تتقلب أحياناً في الفراش، لا سيما في الصباح، وتدفن وجهها في وسادته، وتضع جسمها في الفراغ الذي خلّفه جسمه، وتتنشق رائحته.

وفي إحدى المناسبات قررت أن تلحق به إلى الحمام، لكن الذهول الذي بدا على وجهه حين ظهرت أسكتها عن الكلمات التي رددتها في سرّها وحفظتها عن ظهر قلب.

كان قد تكلم بسخرية عن «الأشياء الحميمة الطبيعية» في الزواج.. لكن، لم يكن بينهما أيّ من هذا، باستثناء دقائق مقتضبة ورصينة ولمرة

واحدة تحت أشعة القمر الأزرق. وراح يبعدها عنه، عاطفياً وجسدياً.

رفض وجود أبواب موصدة بينهما، ومع ذلك ارتفعت الحواجز التي تفصل بينهما، وأصبحت أسوأ بكثير من الأبواب الموصدة. لكن لم يكن لديها أدنى فكرة عن كيفية تحطيمها.

ربما بعد أن يولد الطفل ستتحسن الأمور بينهما. ڤاسكو يريد وريثاً لهذه الأملاك التي يحافظ عليها، وإن أعطته ابناً، فقد يشعر ببعض الحب نحوها. وحين يعود إلى المنزل في المساء، تريد أن يكون لها الحق في أن ترتمي بين ذراعيه من دون أن تخشى الرفض.

سمعت صوت سيارة، فاستوت جالسة، تتساءل عما إذا عاد ڤاسكو. لقد قصد المستوطنة مع عامل تعرّض لجرح بليغ.

لكن، مع ظهور الجيب، أدركت أن السائق هو لينك دالتون.

خرج من السيارة، وصعد السلم إلى الشرفة.

قال: «لقد جئت لأودّعك... أنت لم تتصلي أبداً».

بدا تعليقاً منتقداً، فاحمرّ وجه آبي وردّت باقتضاب: «لا».

علّق بسخرية ثقيلة: «خيبّت أملي سنيورا داكاراڤالو.. ظننت أن شخصيتك أقوى من أن تسمحي بأن يتسلّط عليك رجل لا يمكنه حتى أن يخلص لك».

قالت آبي بثبات: «مهما كان شعوري، لا يعني بالضرورة أنني على استعداد لأن.. أتخلى عن كل شيء لأرحل مع شخص غريب».

- وجهة نظر جيدة، لكنني أعتقد أن الانسان يمكن أن يسأل نفسه، إلى أيّ مدى كنت تعرفين الغازيندير د العظيم حين تزوجت به.

ثم هز كتفيه وأضاف: «أعتقد أنني لا أستطيع لومك، فهو قادر على تقديم حياة أكثر راحة مما أستطيع أنا.. في الوقت الحاضر على أي حال. وحتى حين ينهار هذا المكان من حوله، تبقى لديه عائلته الثرية في ريو لتدعمه.. لذا لن تموني جوعاً».

رفعت آبي ذقنها، وقالت: «أعتقد أنك تخلط بينه وبين جيروليتو.. أؤكد لك أن ڤاسكو لا ينوي أن يترك ريوتشو نيغرو تفلس.. كان حصاد منتصف الموسم جيداً.. و.. وهو يأمل الكثير من الحصاد الرئيسي ومن المشتل الذي يستثمر أمواله فيه».

فهز لينك رأسه قائلاً: «سيكون محظوظاً إن كسب منه حفنة من المال. وهذه هي مشكلة توسيع زراعة الكاكاو بسرعة، إذ لا يمكن للمرء أن يتواجد في كل مكان، لا سيّما عند الحصاد».

احتجّت آبي بسخط: «إنه يعمل بجهد لا يصدق».

وضحك لينك.

ـ إذن، أنت قادرة على الدفاع عنه بالرغم مما فعله بك.. حسن جداً، ربما من الأفضل له أن يبتعد قليلاً عن سقائف التجفيف، ليرى ما يجري في مكان آخر.. «مكنسة الساحرة» ليست محصورة يا سنيورا دونا آبيغايل، فهي تنتقل مع الريح بسرعة خمسين كيلو متراً.. ولاراكوكا ليست بعيدة جداً.

وقفت آبي على قدميها: «أتعني أن أشجار ڤاسكو قد تكون مصابة بسبب وجود «مكنسة الساحرة» في لاراكوكا؟».

ـ هذا ليس احتمالاً.. قمت بجولة وداعية قبل أن آتي لأراك، وأؤكد لك أن ثمانين في المئة من أشجاره الجديدة مصاب.

أحست آبي بالسقم.. وبالصدمة.

ـ لكن، لا بد من وجود شيء نفعله.

هز كتفيه: «بالتأكيد.. اقطعوا الأجزاء المصابة، والقليل من حولها، واحرقوها، بعيداً عن بقية المزرعة. واحرصوا على قطعها كلها، وإلا سيعود المرض مجدداً، وتعودون إلى نقطة الصفر».

وهز كتفيه مجدداً قبل أن يتابع: «ويمكنكم أيضاً أن تحذوا حذو جيراليتو، وتعودوا إلى المدينة الكبرى، وأن تتركوا زراعة الكاكاو لمنطقة

«باهيا» حيث لا وجود لأمراض خبيثة كهذه».

وصمت قليلاً، ثم قال: «وبالطبع في باهيا، ما من أولاد مدينة أو من الذين لا أمل لهم في إدارة هذه الزراعة..».

ارتفع صوت آبي بغضب: «كيف تجرؤ على مثل هذا الكلام؟ وماذا تعرف عن إدارة الأملاك وأنت لا تستطيع.. أن تتحمل مسؤولياتك، وتنتقل من مكان إلى آخر متى شئت».

وضحكت من دون ثبات وهي تضيف: «وهل ظننت حقاً أنني سأرحل معك، وأنا أتساءل في أيّ مرحلة من الطريق ستتخلص مني؟».

ـ هذا أمر لن نعرفه أبداً سيدتي.

واحمّر وجه لينك احراجاً، لكنه أجاب: لكنت عرفتِ أوقاتاً أفضل من تلك التي قضيتها مع السنيور المدعي.. على الأقل، لنلت اهتمامي الكامل».

فقالت بصوت مرتجف، لكن متحدٍ: «أعتقد أنه يمكن اعتبار الأمر خلاصاً محموداً».

ـ وأنا أوافق على كلامك.

كان صوت ڤاسكو مزيجاً من الثلج والفولاذ.

وقفزت آبي مجفلة، فثورتها منعتها من أن تلاحظ وصوله من جهة سقائف التجفيف.

وقالت شاهقة: «أوه.. لم أكن أعرف أنك عدت..».

لم ينظر إليها حين أجاب: «هذا واضح».

وكانت عيناه مركزتين على لينك دالتون وهو يصعد سلم الشرفة.. وأكمل: «كيف يمكن أن أوضح لك، أنه غير مرحب بك في أملاكي؟».

هزّ لينك كتفيه وردّ: «جئت فقط للوداع، ولأعرض على عروسك أن أخرجها من هنا.. لكن، يبدو أنها تفضل أن تبقى، مهما بلغ عدد الشقراوات اللواتي تعرفهن في ماناوس».

www.elromancia.com

بدا وجه ڤاسكو وكأنه منحوت من الرخام. وقال بهدوء: «يا للطفك سنيور.. أن تهتم شخصياً بحياتي الخاصة. والآن، هل تسمح أن ترحل، أم ترغب بأن أرميك من على الشرفة؟».

رفع لينك يده باسترخاء: «حسناً، حسناً! لا داعي للعنف».

وابتسم لڤاسكو ابتسامة عدوانية وأضاف: «من المؤسف أنك ستخسر مالك.. فالأرملة السوداء وشقيق زوجها، سيلحقان بي.. وسيعودان إلى ساو پاولو، وستكون لاراكوكا عرضة للنهب. قد تتمكن من شرائها بثمن بخس.. إلاّ أنني أعتقد أنك لن تبقى هنا فترة طويلة».

ونظر إلى آبي بابتسامة مستهترة وقال: «وداعاً دميتي.. امرحي قدر ما استطعت».

ونزل السلم متجهاً إلى الجيب.

لمعت عينا ڤاسكو غضباً. وبمزيج من الحقد والعدائية، استدار إلى آبي ليسأل بصوت خطير: «وماذا يفترض بهذا أن يعني؟».

أجابت متلعثمة: «ڤاسكو.. إنها «لاراغاتاو» مكنسة الساحرة.. لينك يقول إنها هاجمت معظم أشجارك الصغيرة الجديدة».

استحال لون بشرته السمراء أبيض، فجأة: «مكنسة الساحرة؟ لكن.. كيف؟».

فقال لينك وهو يجلس وراء مقود سيارته: «المرض يجتاح لاراكوكا».

وأدار محرك السيارة، وأخرج رأسه من النافذة ليصيح: «لقد أخبرت زوجتك منذ أسابيع. لعلها نسيت أن توصل الرسالة».

ورمق آبي بنظرة ساخرة وشريرة في آن، ثم انطلق مبتعداً.

وقفت آبي تواجه زوجها.. النظرة في عينيه كانت كافية لتحوّلها إلى حجر.. وسأل بخشونة: «هل هذا صحيح؟ هل كنت تعرفين أن مرض مكنسة الساحرة متفشٍ في لاراكوكا.. ولم تقولي شيئاً؟».

ببطء وخوف هزت رأسها إيجاباً، ورأت وجهه يتلوى ألماً واستياءً.

سارعت تقول بيأس: «ليس الأمر كما تظن.. لقد ذكر لينك الأمر لكنه طلب مني ألاّ أقول شيئاً.. وألاّ أقلقك من دون ضرورة، قال إنه سيعالج الأمر..».

وتلاشى صوتها، ونظر إليها ڤاسكو لحظات طويلة بصمت، ثم أغمض عينيه وكأن رؤيتها أصبحت بغيضة.

قال، وكأنما لنفسه: «ديوس.. لم أدرك حتى هذه اللحظة، كم جعلتك تكرهينني.. لكنك حصلت على انتقامك.. أليس كذلك سنيورا؟».

استدار ينزل السلم مسرعاً، وصاح منادياً آغنيلو وهو يتابع سيره.

راقبت آبي طيفه يختفي، وخرجت منها آهة صغيرة.. كانت تنوي بعد حديثها مع لينك في لاراكوكا، أن تذكر أمر مكنسة الساحرة، بطريقة عفوية أمام ڤاسكو. لكن الأحداث التي تلت، أنستها الأمر برمته.

لكن، كان عليّ أن أتذكر.. كان عليّ أن أحذره، بالرغم مما قاله لينك.

ركضت إلى المنزل واتجهت فوراً إلى غرفة نومها.. خلعت الملابس الخفيفة التي ترتديها، واستبدلتها بقميص طويل الكمين وبنطلون جينز عملي، وانتعلت حذاء عالي الساقين.

ربما ستبدو غبية.. لكن يجب أن تمد يد العون.. أو على الأقل أن تعرض مساعدتها.. بالرغم من أنّ نظرة ڤاسكو الأخيرة أعلمتها أن مساعدتها أمر غير مرحب به.

عندما سارت آخر مرة في القسم الذي يعيش فيه العمال.. كان الجو هادئاً، كسولاً. لكن، لا أثر لهذا اليوم. ورأت شاحنة صغيرة تغادر، مكتظة بمعظم النساء الشابات، والكثير من الفتيان.

صاحت آبي بالسائق وركضت خلف الشاحنة التي توقفت، فامتدت الأيدي لتشدها إلى الداخل.. صعدت مقطوعة الأنفاس وشكرتهم.

بدا وكأنهم لم يعتادوا تلقّي الشكر، وظهرت الصدمة على وجوههم لوجود السنيورا بينهم. وراحت نظرات الحرج الحذر تلاحق آبي من كافة النواحي.

قالت: «أوه.. أرجوكم.. أريد أن أساعد».

ولعنت حاجز اللغة وهي ترى تعابير وجوههم.. وحاولت مجدداً، جاهدة لتركّب جملة مفيدة: «كبيرو.. أيودار».

وساد الصمت مرة أخرى، ثم مالت امرأة مسنّة إلى الأمام وابتسمت وهي تقدم لها منجلاً من الحديد.

قالت آبي: «بريغادو».

وكانت تعني ما تقوله، فهي ليست واحدة منهن ولعلها لن تكون أبداً.. لكن هذه حالة طارئة.. ولهذا قبلن بوجودها بينهن.

ووجدت نفسها تتساءل عما إذا كان ڤاسكو مستعداً لإظهار رحمة مماثلة.

تمسّكت بحافة الشاحنة التي شقت طريقها بين الأشجار.. وراحت النسوة الأخريات ينشدن ترنيمة منخفضة تكاد تكون من دون لحن، فأحست آبي بجسمها يتمايل مع أجسامهن ونغمة الموسيقى.

ووجدت أنها تتأمل ما يحيط بها بنظرة جديدة. رأت أشجار موز تنمو بين أشجار الكاكاو، وبعض الأشجار الأخرى المألوفة لديها، مع أنها لم تستطع أن تحدد اسمها.

وفكرت في أنها ستسأل ڤاسكو عنها.. لكنها توقفت مجفلة.. فهي وإن عوّضت عن خطئها الفادح بمحاربة مكنسة الساحرة إلى جانبه، لا يمكنها أن تضمن أنه سيسامحها، أو أنه سيثق بها بما يكفي ليخبرها عن شؤون المزرعة. وتنهدت.. بدلاً من البقاء في المنزل والإحساس بالأسى

على نفسها، كان عليها أن ترافقه لتتعلم عن عمله، عن الطريقة التي يعيلها بها، ويعيل عمال الأملاك، ربما على هذه الأسس أمكنهما أن يصلا إلى نوع من الألفة بينهما، ولكان لوجودها هنا بعض الفائدة.

على الأقل، لوجدا موضوعاً يناقشانه، حديثاً يملأ ذلك الصمت الرهيب الذي لا نهاية له بينهما.

لكن، لعل الأوان قد فات الآن.

لا! وظنت للحظة أنها تكلمت بصوت مرتفع. لا يمكن أن يكون الأوان قد فات، مهما ادعى لينك.

أحست بالغثيان وهي تفكر فيه.. لقد أعجبت به حقاً، واعتبرته صديقاً محتملاً، وظنت أنه يمكن أن تثق به.. فكيف اتخذت الأمور هذا المسار الخاطىء والبشع إذن؟

وخطر لها أن المرأة التي أرادها فعلاً هي لويزا بالرغم من عرضه الساحر أن يأخذها معه. وبالرغم من أنه كان يصفها بازدراء بالأرملة السوداء، اكتشفت آبي الآن أنها مجرد محاولات لإخفاء مشاعر أكثر عمقاً.

كراهيتها للويزا، لا يمكن أن تغير حقيقة أنها امرأة جميلة فاتنة.. وكان يمكن أن تتحسّن علاقتهما لو لم تشأ لويزا أن تستأثر بڤاسكو، وتجاهر بذلك.

وتذكرت تلميح لينك المرير عن أن ڤاسكو هو الغازنديرو الكبير.. وفكرت في أنها تفهمه الآن.. فبالنسبة إليه، ڤاسكو هو الرجل الذي يملك كل شيء.. مزرعة ناجحة، مركز اجتماعي مرموق، وسحر يمكّنه من الحصول على أيّ امرأة يرغب فيها، بمن فيهن لويزا.

لا بد أن لينك وجد هذا متناقضاً مع وضعه هو، وأحست بالإشفاق عليه، ولو على مضض. واستطاعت أن تفهم سبب الامتعاض الذي يعتمل في داخله.. ومنذ فترة أطول مما يدرك.

لا بد أن ردة فعل لويزا الهستيرية على أنباء لقاء ڤاسكو وديلا في ماناوس، كانت القشة الأخيرة التي قسمت ظهر البعير، وأقنعته بأنه يضيع وقته سدى.

طار سرب من الطيور الصغيرة، في سحابة صاخبة أمام الشاحبة، فأجفلها وأخرجها من أفكارها المزعجة. ورأت أنهم يدخلون قسماً جديداً من المزرعة، لم تره من قبل.. وبدا جلياً أنه يجري تنظيف الأرض قبل زرعها، ولاحظت الشجيرات الصغيرة المكومة بدقة بالغة.

تفحّصت آبي الأقرب إليها فيما توقفت الشاحنة الصغيرة، وبدأ الركاب يترجّلون. بدت الأشجار في حالة جيدة.. لعل هذا الذعر كله من اختراع لينك.. نوع من الحقد المتعمد.

ترجّلت بدورها من الشاحنة، ونظرت حولها، تتساءل عما إذا كان هناك من يعلّمها ما عليها أن تفعله. فهي ليست معتادة على أي نوع من أنواع الزراعة، ومنزل عمها في لندن لا يضم سوى حديقة خلفية أنيقة. وكان هناك قطعة أرض ملحقة بمنزل العطلات في «سوفولك» لكنهم يستخدمون بستانياً للاعتناء بها.

وكرهت الإحساس بعدم الجدوى وبالجهل الذي يولده.

كان العمل قد بدأ من حولها، والناس يتحركون بشكل مدروس عبر صفوف الأشجار، ينتزعون الأغصان ويرمونها في كومة خلفهم.

تقدّمت لتتفحص الشجرة الأقرب إليها.. واستطاعت أن ترى أن بعض الأغصان منتفخ، ومتشعب بطريقة غير طبيعية. وتذكرت المعلومات التي زوّدها بها لينك بعفوية «اقطعي القسم المصاب، وحوله قليلاً». وأمسكت المنجل بحذر شديد وقطعت الجزء المصاب ورمته خلفها.. لكن هل قطعته كله؟ تساءلت بذعر وهي تنظر إلى بقية الأغصان التي تتخذ شكل المروحة.

لامست يد كتفها بخفة وحذر، فرفعت رأسها لتجد وجهاً رزيناً لصبي

صغير في العاشرة من العمره. أشار بصمت إلى غصن آخر وهز رأسه.. حين قطعته وتخلصت منه، قادها إلى شجرة أخرى.. وبذهول مختلط بعرفان الجميل، أدركت آبي أنه عيّن نفسه مشرفاً عليها. وجثمت بارتباك، وأخذت تقطع حيث يشير إليها، ويتحركان من شجرة إلى أخرى.. كان الغناء قد تلاشى، وساد السكون والصمت، وتركزت الجهود حولها، وشكلت جزءاً منها.. جزء من نموذج، في وتيرة مؤلمة تقطع الظهر.

كان العرق يتصبب من جبينها، ويجري على صدرها.. وأحست بمقبض المنجل ينزلق من بين أصابعها، فاضطرت إلى مسح يديها باستمرار ببنطلونها الجينز. وأحسّت بالأغصان أشد قسوة مما تبدو عليه، وبدأت يداها تؤلمانها. لا بدّ أنها ستصاب بقروح، لكن هذا لا يهم.

وفكرت بشيء من السخرية بأنها تافهة، عديمة الشخصية وعاجزة.. ورأت كيف تعمل الأخريات بكفاءة، حتى أنّ بعضهن يحملن أطفالهن على ظهورهن.

وراحت آبي تؤنب نفسها لأنها كانت تقضي يومها رافعة قدميها.

بدا أنّ ألم ظهرها قد تلاشى، أو لعلها لم تعد تتبيّنه من بين كل الآلام الأخرى التي تنتابها. كانت قد تركت ساعتها في غرفة نومها، وهجرها كل إحساس بالوقت، وحدها حركة الشمس وظلال الأشجار أعطتها دلالة على مرور النهار.. فضلاً عن تعب عضلاتها وأطرافها.

شدّ الصبي على ذراعها وقال: «ديڤاغار سنيورا.. ديڤاغار».

طلب منها أن تتمهل في عملها أكثر، لكن كيف يمكنها ذلك، وأمامها صفوف وصفوف من الأشجار الممتدة إلى مسافة بعيدة؟

رأت أن الجموع تخف تدريجياً.. يبدو أن وقت الاستراحة قد حان. واختفى المشرف على آبي، ليعود بعد بضع دقائق حاملاً شالاً فرشه على الأرض تحت أشجار الموز.. وأشار إليها أن تجلس.

جلست بامتنان، واسندت ظهرها على جذع شجرة، متسائلة عما إذا

كانت ستجد القوة اللازمة لتقف مرة أخرى. وأغمضت عينيها، لكنها عادت وفتحتهما حين أحست بتربيت متردد على كتفها. وكان الصبي يمد لها مياه معدنية.

كانت المياه ساخنة وتحمل طعم مواد كيماوية، لكنها أفضل ما ذاقته في حياتها. شعرت أن بإمكانها أن تشرب القربة كلها، لكنها حرصت على ألا تفعل، ثم مسحت فمها وأعادتها إليه مبتسمة.

وسألت: «كومو سي ياما.. ما اسمك؟».

تلوى خجلاً لاهتمامها به.. وتمتم: «ألفونسو سنيورا».

هزت رأسها تتساءل عما إذا كانت التقاليد تقضي بأن يسمّي العمال أولادهم على اسم الباتراو والسنيورا. وإذا كان هذا صحيحاً، فقد ترى في الجيل القادم أطفالاً يحملون اسميّ ڤاسكو وآبيغايل.. وأعجبتها الفكرة.

التقط الفونسو ورقة شجر عريضة وأخذ يحركها أمام وجهها علّها تشعر بالانتعاش. لكنه توقف فجأة، وقفز واقفاً، فأجبرت آبي نفسها على فتح جفنيها الناعسين لتجد ڤاسكو واقفاً أمامها، يتأملها بوجه متجهم وقناع من الاستياء.

قال: «حين أخبرني آغنيلو لم أصدق.. هل أنت مجنونة تماماً؟».

ـ لا أعتقد هذا.

لكن كلماتها انتهت بشهقة بعد أن انحنى ليوقفها بخشونة على قدميها.. ورأت أن الفونسو اختفى بكل لباقة بين الأعشاب.

قال ڤاسكو: «ستعودين إلى الغازندا فوراً آبيغايل».

قالت: «أوه لا.. لن أعود، بإمكانك إبعادي عن حياتك وقلبك، لكنك لن تستطيع منعي من التعويض عن كل هذا».

ونظرت حولها.

لا بد أنها تعاني من الإرهاق، وتحسّ بدوار، وإلا لما تجرأت على مواجهته هكذا. وفيما بعد ستندم على الأرجح بمرارة لأنها سمحت لنفسها

بالإشارة إلى العذاب الذي يسببه لها هذا «اللازواج» بينهما. لكنها الآن، ولسبب ما، لم تعد تهتم.

ووجدت صوتها، ذلك الصوت الغريب مرة أخرى: «أنا زوجتك ڤاسكو.. زوجة «پاتراو» ريوتشو نيغرو ويحقّ لي أن أكون هنا.. كان عليّ أن أخبرك عن «مكنسة الساحرة» في «لاراكوكا».. وأدرك هذا الآن.. لكنني لم أكن أعلم مدى أهمية ذلك. يجب أن تتركني أفعل هذا، أحتاج لأن أقوم به.. اللعنة عليك.. أحتاج إليه!».

وفجأة انفجرت بالبكاء، واختلطت دموعها بقطرات العرق على وجهها، ورفعت قبضتيها، لتضرب بعنف على صدره.. وكررت مرتجفة: «أحتاج.. إلى هذا».

أطبقت يداه على يديها تجمدهما.. وقال بتسلط حاد: «إهدئي آبي.. أنت لا تدركين ما تقولينه.. وما تفعلينه».

ـ بلى.. أعرف.. ويجب أن تتركني أساعد. أنت مدين لي بهذا على الأقل.

ـ كيريدا..

ولم يكن قد كلّمها بمثل هذه اللهجة اللطيفة منذ أسابيع..

ـ .. ليس هناك مسألة دين، ولقد قمت بما يكفي، عودي إلى المنزل..

ـ لا.

ونظرت إلى صفوف الأشجار التي تكاد لا تنتهي، والتي أخذت تترنح أمامها بشكل غريب.. وعاد ألم ظهرها إليها أقوى مما كان عليه، فتوتر جسمها كله.. وغاصت أسنانها في الجهة الداخلية الطرية من شفتها السفلى..

ـ أوه.. ما الفائدة؟ أنت لا تريدني هنا.. ولم تردني يوماً.. لا شيء أفعله يمكن أن يشكّل فارقاً.

راحت تهذي، وأدركت هذا. لأن الألم بدأ يخيفها ويهاجمها بعنف وضراوة. كل هذا الألم... لا بد أنّ عضلة ما قد تمزّقت.

قال ڤاسكو بخشونة، وبصوت حاد: «أي هراء هذا؟ آبي.. ما بك؟».

يداه القاسيتان أمسكتا بوجهها.

وفجأة لم يعد هناك سوى الألم. رفعت آبي نظرها إلى وجه ڤاسكو، ورأت اللمعان الأسود في عينيه، والخطوط المتوترة حول فمه.

وخطر لها أنّ لديها ما تقوله له.. ما تحتاج أن تعطيه.. وأدركت أن شفتيها تتحركان، لكنها لم تسمع ما كانت تقوله، لأن الهدير في أذنيها مرتفع جداً.. وغامر جداً.

وشعرت به يطبق ذراعيه حولها بقوة، قبل أن تبتلعها الظلمة الحارة المذلة.

***

١١ ـ أصابع الساحرة

كانت أصابع الساحرة تطبق عليها، تمزق لحمها. وسمعت آبي نفسها تئن، وصوت لطيف يقول: «كالما، دونا آبيغايل».

وبدأ الألم يزول بسحر ساحر.

وحين فتحت عينيها، بدت الغرفة عابقة برائحة لاذعة حادة، وهمهمت: «إنهم يحرقون الساحرة..».

لاحظت طيف رجل يقف قرب السرير.. فركزت آبي، واكتشفت أنه الدكتور آروپا.

قال: «سيم سنيورا.. إنهم يفعلون ذلك فعلاً.. كيف حالك؟».

حاولت الجلوس، ثم قالت: «رأسي يدور.. وأشعر بالألم».

وعادت لتستلقي على الوسائد، وهي تنظر إلى وجه الطبيب اللطيف الوقور.

ـ فقدت الطفل.. أليس كذلك؟

ـ للأسف أجل، دونا آبيغايل.

وجلس على حافة السرير.

ـ هل لي أن أعرف متى أحسست بالألم؟

بدا لها هذا منذ زمن طويل. وقالت: «استيقظت مع ألم في ظهري.. لكنه اختفى.. لفترة ما».

وعضت شفتها السفلى: «لو استرحت، هل كان هذا ليشكّل فرقاً؟».

www.elromancia.com

هز رأسه: «لا أعتقد، دونا آبيغايل. أحياناً هذه الأمور لا مفر منها، ولا يمكن تجنبها.. الطبيعة تأخذ مجراها».

وابتسم لها مطمئناً ثم أضاف: «ستصبحين على ما يرام».

وقدّم لها قرصيّ دواء وكوب ماء.

- والآن خذي هذه، واستريحي.

ابتلعت الأقراص بطاعة، وتركت العالم يختفي من حولها مجدداً.

هذه المرة، حين استيقظت، وجدت ڤاسكو متمدداً على مقعد إلى جانب السرير.. بدا متجهماً غير حليق، وخطوط التوتر ظاهرة بوضوح على وجهه. الابتسامة الشاحبة التي وجهها إليها، لم تصل إلى عينيه.

قال بهدوء: «كيف حالك؟».

- أفضل، كما أعتقد.

وأحست بجفاف شفتيها، فبللتهما بلسانها وأكملت: «ڤاسكو.. أنا آسفة..».

فقال بصوت كئيب: «لست الملامة.. ولا تكره شيئاً لعله خير لك».

لو ضربها، لما شعرت بصدمة أكبر. لكن، من المفترض أن تتوقع هذا. بفقدانها الطفل، زال السبب الوحيد الذي جعلهما يحافظان على هذا الزواج. وها هو ڤاسكو، يلمح من دون ادعاء أو مراوغة، إلى أنه يريد استعادة حريته.

قالت بصوت مخنوق: «أنا.. أنا واثقة من أنك على حق. لكنني لا أستطيع رؤية الأمر من هذا المنظار.. ليس بعد. ربما بعد بضعة أيام..».

هز رأسه موافقاً: «ربما.. أكد لي جورج أنك ستكونين بخير قريباً، آبيغايل».

وساد الصمت، ثم أضاف بأدب: «أرجو ألاّ يكون الدخان قد أزعجك كثيراً؟».

أجبرت نفسها على الابتسام: «أوه.. لا.. هل تمكنت من التخلص

من الآفة؟».

قال: «لا يمكننا سوى أن نأمل.. لا أستطيع أن أتأكد بعد ولا أعرف ما إذا كان الحصاد التالي من الأشجار الجديدة قد تأثر. بغياب هذه المعطيات كلها لا أستطيع أن احتسب الكلفة».

وقف على قدميه وكشّر قائلاً: «لكن، يجب ألاّ أحملك عبء مشاكلي».

رفع يدها وطبع قبلة سريعة: «بوانوي آبيغايل».

راقبت باب غرفة الملابس وهو يغلقه وراءه، واستدارت لتدفن وجهها بتشنج في الوسادة. لقد خطر لها للحظات أن طريقة كلامه معها في المزرعة، لا تخلو من الحنان.. لكنه مجرد قلق على الطفل، وليس عليها.

والآن لم يعد هناك طفل، ويريد أن يتخلص منها لتحل ديلا، حبه الحقيقي، مكانها.

إن نظرت إلى الأمر بطريقة موضوعية مجردة، لوجدت أن هذا هو الحل الأمثل للموقف كله. لكنها لا تستطيع أن تكون موضوعية الآن وهي تواجه حقيقة إبعادها. ألم الفراغ في جسدها لا يقارن بمشاعر الألم واللوعة التي تختبرها.

ألم يكن بإمكان ڤاسكو أن يوفر عليها هذا حتى تقف على قدميها مجدداً، بعد بضعة أيام؟

وشدّت قبضتيها بغضب.. أم يظن أنه من الأفضل أن يكون قاسياً فلا يترك لها مجالاً للشك، حول خططه المستقبلية؟

تأثير أقراص الدكتور آروپا مكنتها من أن تنام قسماً من الليل على الأقل. وأحست أنها بحالة جيدة تكفي لتغادر السرير في اليوم التالي.. لكن آنا رفضت بشدة. وأقنعت آبي بأن ترتدي ثوب نوم نظيف، ومشطت لها شعرها وربطته إلى الخلف بشريطة تتناسب مع ثوب نومها.

وجدت آبي أن كل هذا التحسين في مظهرها غير ضروري.. وكادت تقول هذا.. لكن سرّها أنها لم تفعل حين فتحت آنا الباب بعد قليل، وأدخلت لويزا إلى الغرفة.

كان في الابتسامة التي وجهتها لآبي شيء من الحدة: «أنا آسفة جداً لما حصل لك دونا آبيغايل. لم يكن لديّ فكرة..».

وصمتت، وقد بدت محرجة بالفعل.

فقالت آبي بهدوء: «لا بد أن الشائعات خفّت الآن.. لطف منك أن تزوريني».

هزت لويزا رأسها: «كنت أنوي الزيارة على أي حال.. لأودعك.. سيعود جيراليتو إلى الحياة التي تناسبه وسأرافقه».

وتنهدت لتضيف: «لا شيء يستبقيني هنا الآن».

فقالت آبي بأدب: «بعد وفاة زوجك بالطبع».

رأت عيني لويزا تلمعان للحظة عابرة، ثم أطلقت ضحكة صغيرة، وقالت: «بالطبع».

ساد الصمت مجدداً، ثم سألت لويزا: «وأنت دونا آبيغايل.. متى ستغادرين ريوتشو نيغرو؟».

إذن، لقد انطلقت الشائعات من جديد. وقالت آبي متجهمة: «لم أقرر بعد في الواقع».

وصمتت بلباقة قبل أن تقول: «مع ذلك، فهمت من ڤاسكو.. لا بد أنني مخطئة».

وتفحّصت أظافرها ثم أضافت: «لكن المغادرة قرار متعقل. وهناك قول في انكلترا، أعتقد أنه كقيادة جواد ميت..».

وهزت كتفيها متسائلة: «ولماذا يرغب أحد في أن يفعل هذا؟».

وافقتها آبي: «لماذا حقاً؟ وأعتقد أن هذا ما استنتجته أنت أيضاً».

ساد صمت مشحون، ثم وقفت لويزا قائلةً: «أديوس دونا آبيغايل.

أعتقد أننا لن نلتقي مجدداً».

وأرسلت قبلة في الهواء إلى آبي، قبل أن تضيف: «تقبلّي أسفي مجدداً.. مع أن ڤاسكو في مثل هذه الظروف، سيرتاح، إذ لم يعد لديه فماً إضافياً يطعمه».

راقبتها آبي تتجه بخفة نحو الباب، متمنية من كل قلبها لو أن أصول الضيافة لا تمنعها من رمي إبريق ماء على ضيفتها المغادرة.

آلمها أن تعرف أن ڤاسكو قال للويزا ولو تلميحاً، إن آبي لن تطيل البقاء في ريوتشو نيغرو. لكنه على الأقل أعلم لويزا أن لا أمل لها معه.. وهذا لا شك عزاء خفيف.. كما اعتقدت آبي المسكينة.

مر اليوم ببطء مريع، قطعته زيارات الخادمات اللواتي حملن إليها الطعام الشهي، بما في ذلك صدور الدجاج المسلوق المفضلة لديها.

بذلت الخادمات جهدهن لتعزيتها. وأدركت آبي هذا بامتنان.. لكنهن لا يعرفن طبعاً أنها ليست حزينة على فقدان طفلها وحسب، بل على دمار حياتها كلها.. ووجدت نفسها تتساءل عن حالهن تحت سلطة ديلا.

مرّ اليوم ببطء قاتل، ولحق به يوم آخر.. وراحت سحب الدخان تبتعد تدريجياً عن ريوتشو نيغرو.

كان ڤاسكو يزورها بدقة وحرص صباحاً مساءً، فيسألها بأدب وبلهجة رسمية عن حالها. وكانت تجيبه بإشراق ورسمية، أنّ حالها يتحسّن مع مرور الوقت.

ولم تكن تكذب بهذا الشأن، فجسمها راح يسترد عافيته بسرعة، كما تنبأ لها الدكتور آروپا، الذي بدا مسروراً لتحسّن حالها.

وفي صباح أحد الأيام، قال لها وهما يشربان القهوة معاً على الشرفة:

ـ سأفتقد لزياراتي إلى هنا.. لكن ليس لدي أيّ عذر لأتابع الزيارات.. حان الوقت لتتخطي هذه الأزمة، دونا آبيغايل، وتتابعي حياتك.

حاولت آبي أن تبادله ابتسامته وقالت: «ما زلت أشعر بالاكتئاب في بعض الأحيان».

ربت على يدها: «طبعاً.. هذا أمر طبيعي. لكن هذا سيمر، وما تحتاجين إليه هو طفل آخر. وفي أسرع وقت ممكن، كما قلت لڤاسكو».

ابتلعت آبي ريقها وسألته: «قلت له.. هذا؟».

فقال بحرارة: «نعم.. كان قلقاً عليك. يجب أن تستعيدي عافيتك تماماً قبل أن...».

وصمت بلباقة: «لذا سرّني أن أريح باله».

أحست أن عضلات وجهها تتشنج بشكل لا يحتمل.. فخلال الأيام التي مرت، لم يظهر ڤاسكو أيّ قلق أو خوف. معاملته الرسمية والمؤدّبة، كانت مجرد واجهة.. شعرت آبي خلفها بقلقه وتوتره من مواجهتها.

عضت شفتها.. وتصورت ردة فعله حين اقترح الطبيب المرح أن يفكّر بطفل آخر.. راح ينام في غرفة الملابس منذ خسرت طفلها، ولم يكن هناك ما يشير إلى أن هذا الترتيب سيتغير خلال إقامتها في ريوتشو نيغرو.

وأدركت أنه يُبعد نفسه، ويستعد للمواجهة المحتمة.

لوحت مودّعة الدكتور، وصعدت مجدداً سلم الشرفة.. ألقت التحية على دون الفونسو الذي أطلق إحدى صيحاته الشريرة.. وللمرة الأولى، صفق بجناحيه ومد عنقه، يشير بهذا إلى أنه يسمح لآبي أن تداعبه بلطف.. عادة ڤاسكو هو الشخص الوحيد الذي يسمح له بمثل هذا التصرّف الحميم.

وتنهدت، ثم همست: «أوه دون الفونسو.. هل ستصادقني أخيراً.. في حين سأغادر قريباً؟».

نظرت حولها وهي تملس ريشه.. وفكرت بحزن، هذا كله ملك ڤاسكو.. مملكته الصغيرة، التي لم تكن فيها يوماً سوى دخيلة.

ورفعت رأسها.. لن تخرج من هنا طرداً.. وأقسمت على هذا بصمت. بطريقة ما ستجد القوة اللازمة للرحيل، كما كانت تنوي أن تفعل، مرفوعة الرايات، مصانة الكرامة.

كانت واثقة من أن الخادمات لم يسمعن حديثها مع الدكتور آروپا، لكن العشاء تلك الليلة اتخذ طابعاً احتفالياً. فقد أضافت روزا صنفاً جديداً، وحضّرت مرقاً لذيذاً، ليتناسب مع البطة التي شكّلت الطبق الرئيسي.

وبالرغم من عذابها الداخلي، أكلت آبي بنهم، ثم استندت إلى ظهر كرسيها متخمة.. لكن عليها أن تراقب أكلها، وإلا سينتهي بها الأمر كبرميل صغير.

فيما بعد جلسا على الشرفة وراحت الفراشات تدور حول المصباح الموضوع على الطاولة.. لاحظت آبي أن يدها ترتجف وهي تصب القهوة، فيما ڤاسكو أشعل سيكاراً آخر، شعرت وكأنه دليل شؤم.. أم أنها تتخيل الأشياء بهستيرية؟

وأخيراً، قال بهدوء: «آبي.. لقد قال لي جورج إنك أصبحت بخير. لذا آن الأوان لنتكلم بجدية معاً.. نحن نواجه وضعاً يحتاج إلى قرارات صعبة. و..».

ـ وسوف تقول لي ماذا قررت.

وكان صوتها أعلى بقليل من المعتاد.

خالفها بحدة: «لا.. نحن بحاجة لأن نتكلم.. وللتفكير بما هو أفضل..».

ذكّرته آبي: «لقد قلت هذا من قبل.. قبل سفرك إلى ماناوس.. لكن حين عدت لم نتناقش، بل فرضت.. حلك الخاص علينا معاً».

وأخذت نفساً عميقاً قبل أن تقول: «وهذا.. ما لن يحدث مرة أخرى ڤاسكو.. لقد قررت فعلاً ما أريد».

- وما هو؟

أبقت آبي صوتها ثابتاً بجهد كبير: «أن أغادر ريوتشو نيغرو.. أن أعود إلى انكلترا».

- وحدك.. أم لتلاقي عشيقك؟

للحظة، صمتت.. مصدومة.. طرح السؤال بلامبالاة، واستحالت قراءة التعبير الذي علا وجهه وهو يتراجع بكرسيه إلى الوراء ليصبح وجهه في الظل.

هل يظن حقاً أنها تلحق بليتك بالرغم من كل ما حصل، أم أنه يرغب في اتهامها، ليريح ضميره.. فإن كانت ستلحق برجل آخر، لن يشعر بالذنب لإبعادها؟

اختلط الغضب بالألم في داخلها.. حسن جداً، لن تسمح له بمثل هذا المخرج.

قالت بهدوء: «ليس لدي أيّ خطط بعد».

- فهمت.

وكان هناك صمت طويل.. ثم قال متجهماً: «يبدو أنك عرفت مسبقاً ما أريد قوله لك».

أطرقت آبي برأسها تنظر إلى يديها المضمومتين في حضنها، وإلى لمعان خاتم الزواج.

وقالت: «أجل. لقد عرفت منذ فترة.. هذا ليس سراً يمكن أن تخفيه. ولو بقي لديّ أي شك.. فقد بددته لويزا».

مال إلى الأمام، بوجه متجهم وسألها: «لويزا؟ ما شأنها بهذا؟».

أجبرت نفسها على الابتسام، وهي تجيب:

- أكثر مما تظن. ولا تتصور أنني سأرغب في البقاء هنا مدة أطول.. في هذه الظروف.

فقال بقسوة: «يبدو أنّ ما أفكر فيه لا يهم.. كما يبدو أنني أخطأت

منذ البداية.. فأنا لم أدرك كيريدا، أن لديك مثل هذه النظرة الواقعية للحياة».

لكن لهجته لم تخدعها.. وأنبأها حدسها أنه غاضب بشدة.. يبدو أن كرامته كرجل طعنت باستعدادها الظاهر لتركه.

قالت بصراحة: «لديّ مشاعري، التي يبدو أنك تغاضيت عنها.. أنا لست دمية تافهة تتلاعب بها كما تشاء».

- وهل هذا هو الانطباع الذي أعطيته؟

وبدا مرتاعاً بالفعل.

- آبيغايل.. أقسم أن هذا غير صحيح..

- إذن، كان عليك أن تتركني أرحل منذ بضعة أسابيع، حين أردت هذا، بدلاً من أن تدوس بخشونة على رغباتي كما فعلت.

ساد صمت آخر، ثم قال: «لكنك تعرفين لماذا فعلت هذا.. كان موقفاً.. مفروضاً علينا معاً.. ولم اختره..».

قاطعته بحدة: «ولا أنا.. حسن جداً.. لقد تغير الموقف الآن وبشكل درامي وأريد الرحيل فاسكو.. وبأسرع وقت ممكن!».

مال إلى الأمام، ينظر إليها على نور المصباح وكأنه لم يرها من قبل. وانفرجت شفتاه، ثم أطبقهما وكأنه يجبر نفسه على الصمت. ورمى عقب السيكار من فوق حاجز الشرفة.. ثم وقف.

قال: «إذن ستنالين ما ترغبين فيه آبيغايل.. لكن، هل لي بطلب واحد منك؟ يجب أن أقصد ماناوس غداً. فهلاّ أخّرت سفرك إلى حين عودتي؟».

أجفلت: «وهل هذا ضروري؟».

اشتد ضغطه على فمه: «أعتقد هذا.. على الأقل من الناحية العملية. فأنت بحاجة لتذكرة سفر للعودة إلى بريطانيا.. وستحتاجين إلى بيدرو لازارو لينقلك من هنا».

www.elromancia.com

نظرت إلى الطاولة: «حسن جداً.. إذن».

وساد صمت طويل آخر، وظنت أنها سمعته يتنهد قبل أن تسمع وقع أقدامه وهو يبتعد عنها ليدخل المنزل.

وبقيت حيث هي دقائق طويلة.

إذن هذا هو الأمر.. ببساطة تخلّت عن كل ما أرادته في الحياة.

أمر بسيط.. ومحطم للقلب.

وبعد ثلاثة أيام، وقفت تراقب طائرة بيدرو لازارو تدور فوق الغازندا قبل أن تختفي وراء الأشجار.

منذ رحيل ڤاسكو، عاشت في نوع من السبات. لكن هذا انتهى الآن.. وإقامتها في ريوتشو نيغرو شارفت على نهايتها.

لم ترغب في الطلب من الخادمات توضيب حقائبها سلفاً.. لذا، قررت أن تفعل ذلك الآن، علّها تنشغل بانتظار وصول الرجال من المدرج.

دخلت غرفة نومها وأحضرت حقيبتها من الخزانة الفخمة الشبيهة بالكهف، ثم بدأت تختار ثيابها التي حملتها معها.

فجأة، وجدت نفسها تتساءل عما إذا كانت ديلا برفقة ڤاسكو أم أنه سينتظر فترة قبل أن يعود بإمرأة أخرى إلى المنزل. والتقطت حذاء دسته في الحقيبة فوق الثياب الموضوعة بطريقة فوضوية.

لماذا تعذب نفسها بهذا؟ سرعان ما ستعرف.. كما أن هذا الأمر لم يعد من شأنها على أي حال. لقد انتهى زواجها، فلماذا سيزعج ڤاسكو نفسه بإخفاء الأمور عنها من الآن وصاعداً؟

كادت تنتهي من توضيب الثياب حين سمعت صوت الجيب.

لا بد أنه حطم الأرقام القياسية ليصل بسرعة إلى هنا.. هل هو متحمس إلى هذا الحد ليخرجها من منزله؟ وأحست بالدموع في عينيها، فمسحتها بغضب.. ستخرج من هنا مرفوعة الرأس، ولن تشهق باكية، أو

تتوسل إليه ليغدق عليها حباً لا يستطيع أن يمنحه.

كانت تقفل حقيبتها، حين دخل غرفة النوم، ولم ترفع رأسها عندما وقف إلى جانبها، بل استمرت في اقفال الحقيبة التي رفضت أن تطاوعها بسهولة.

قال بهدوء: «أرى أنك لم تضيعي وقتك».

أحست بجفاف فمها: «وماذا تتوقع؟ هل.. عدت وحدك؟».

وكرهت نفسها للسؤال.. لكن، إذا كانت ستواجه ديلا، فهي تحتاج إلى إنذار مسبق.

بدا ڤاسكو مدهوشاً حين ردّ: «بيدرو معي، وروزا تقدم له الطعام».

وقفت بعد أن كانت راكعة على ركبتيها، وأشارت إلى الحقيبة: «هل يمكنك إخراج هذه إلى الشرفة».

قال: «في الحال.. لكن، ألا تريدين معرفة.. أليس لديك أي فضول لمعرفة ما الذي دفعني إلى الذهاب إلى ماناوس؟».

هزت رأسها نفياً: «أعرف».

ـ لكنك لا تعرفين نتيجة زيارتي.

وحاولت تجاوزه، لكن يديه نزلتا على كتفيها، تؤخرانها. وقال بهدوء: «آبي.. لقد وجدت مشترياً محتملاً لريوتشو نيغرو. سأتوقف عن كفاحي هنا، وسأعود إلى «ريو» لأنضم إلى أعمال العائلة».

وصمت: «.. حسن جداً.. أليس لديك ما تقولينه؟».

أحست آبي وكأنها تحوّلت إلى حجر، ورفعت رأسها تنظر إلى وجهه، تحاول استيعاب الخطوط المتوترة الجديدة على وجهه وحول فمه وعينيه.

قالت، شبه هامسة: «لكنك قلت إن المكان هنا حياتك.. وإنك لن تتركه أبداً».

هز ڤاسكو رأسه: «وكنت أعني ما قلته يومها.. لكن، منذ ذلك

www.elromancia.com

الوقت تعلمت أن لا شيء هنا يهمني بقدر ما تهمني سعادة المرأة التي أحبها».

عندئذٍ، حررت نفسها، وقالت بخشونة: «إذن، من المؤسف أنك لم تصل إلى هذا القرار منذ زمن بعيد.. ووفرت كل هذه التعاسة و... والمرارة».

- وهل هذا كل ما لديك لتقوليه؟

وكان في صوته رنة عدم تصديق.

- ألا يهمك أن أكون على استعداد لأن أقوم بمثل هذه التضحية؟

نظرت إليه بحدة: «وماذا تتوقع مني؟ أن أربت على كتفك وأقدم لك تهنئتي القلبية؟ حسن جداً.. إنسَ الأمر. لم يعد يهمني ما تفعله ڤاسكو.. وأتمنى أن تجري الأمور كما تريد».

وانتزعت حقيبتها مضيفة: «والآن.. أود أن أرحل».

بدا الصمت بينهما كئيباً، وفارغاً كالصحراء. ثم هز ڤاسكو كتفيه، واستدار مبتعداً وهو يقول وكأنما لنفسه: «وأنا كنت أبله بما يكفي لأظن أنّ هذا سيشكّل فارقاً.. وأنك قد تفهمين دوافعي..».

قاطعته بصوت مرتجف: «أنت لا تتوقع الكثير!».

قال ساخراً: «على العكس.. أتوقع الكثير.. أديوس سنيورا، لن أؤخرك أكثر من هذا».

أسرعت آبي لتخرج من المنزل، والحقيبة تصطدم بساقيها وهي تتحرك. لم يكن في المنزل أحد، وسرّها هذا. ولم تشأ أن تواجه آنا والأخرين.. قد يعتذر لهن ڤاسكو بعد أن ترحل، ويروي لهن القصة التي يريدها ليبرر رحيلها المفاجيء.

لكنه سيضطر بطريقة ما لأن يشرح قصته.

أحست باليأس لأن ديلا قد ربحت في النهاية، مع أنها واثقة من أن ابنة عمها لن تتأقلم مع سحر ريوتشو نيغرو البري الخطير. وبدا ڤاسكو، غير

مستعد لأن يخاطر بفقدانها مرة أخرى.. ومن يستطيع لومه؟

لكنه يحب الحياة هنا، فهل سيكون سعيداً في «ريو» بعيداً عن كل هذا، على الرغم من وجود ديلا إلى جانبه؟

كانت تتوقع أن ينتظرها بيدرو لازارو على الشرفة، لكنها لم تجد أثراً له، ورمت حقيبتها أرضاً ووقفت حائرة للحظة.. وبدا أن انتظارها سيطول.

ومرت اللحظة ببطء معذّب.. وصاح بها دون الفونسو، فتقدمت منه لتداعب رأسه المخيف بإصبعها.

وهمست بصوت أجش: «وداعاً أيها الوحش.. تمنّى لي الحظ».

وتوقفت فجأة.. لقد نسيت «فيغا» القبضة الخشبية الجالبة للحظ.. لطالما اعتزّت بالرمز الخشبي الذي رحب بها في ريوتشو نيغرو، مع أنه لم يحمل لها حظاً جيداً حقيقياً حتى الساعة. لكن لعل سحره ليس قوياً بما يكفي ليبدد التأثيرات المضادة التي واجهتها منذ البداية.

لكن، وبالرغم من هذا، لم تشأ أن تغادر وتتركه خلفها. إذ شعرت، ولسبب ما، أنه من المؤلم جداً، ومن سوء الحظ أن تخلّفه.

عادت ببطء إلى غرفة النوم، آملة أن تجد الغرفة مهجورة. على أي حال غاب ڤاسكو عن المزرعة ثلاثة أيام، فحتى وإن كان يخطط للرحيل، عليه أن يرى آفنيلو، وأن ينجز بعض الأعمال المكتبية.

فتحت باب غرفة النوم، ودخلت.. ثم توقفت مسمرة.

وجدت ڤاسكو هناك، جالساً على حافة السرير، ممسكاً بثوب نومها الذي تركته، وقد ارتسم على وجهه تعبير معذب مزّق روحها وقلبها.

وراقبته مذهولة، وهو يرفع أطراف الثوب المعطر الناعم إلى وجهه يدفنه فيه بما يشبه شهقة النحيب.

سارت بصمت، ووقفت إلى جانبه، ثم وضعت يداً على كتفه:

- ڤاسكو؟

أجفل وتراجع وكأن لمستها حرقته.. ورمى الثوب بعيداً لينظر إليها بالرغم من الليل المخيف في عينيه.

قال بصوت متوتر: «ماذا تفعلين هنا؟ ظننتك ذهبت؟».

ـ عدت لآخذ غرضاً.

تصلّب الوجه الأسمر القاتم، وقال بشيء من الازدراء: «خذيه إذن، وارحلي، واتركيني بسلام».

لم يعد لدى آبي أيّ فكرة عما يجري.. واكتفت باتباع حدسها، وبالرد على النظرة المعذبة التي لم يكن من المفترض أن تراها.

قالت ببطء: «هل هذا ما تريده؟.. هل هذا.. حقاً.. ما تريده؟».

ـ وما همك؟ لقد كررت باستمرار أن أحلامي ومشاكلي لم تعد من شأنك، فبالله عليك آبي، ليكن في قلبك شيء من الرحمة، وارحلي من هنا بسرعة.

جلست على السرير إلى جانبه، وفمها جاف وقالت: «ماذا جرى؟ هل خذلتك ديلا؟».

كرر بصوت غير مصدق: «ديلا؟ عمّ تتكلمين؟».

توسّلت بحرارة تقريباً: «أرجوك.. لا تتظاهر أو تكذب عليّ. كانت في ماناوس، وأنت معها. لقد رآكما جيرولبتو معاً، وأخبر الجميع».

أطلق ڤاسكو شتيمة قصيرة وحادة، وقال مكشراً: «ذلك الغبي المتطفل! نعم.. جاءت إلى ماناوس.. وتزامن وصولها مع رسالة تعلمني فيها بنيتها، لذا لم أتمكّن من اتخاذ أي خطوة لأتجنبها. لكنني لم أشأ أن تعرفي. كانت ديلا جزءاً من سبب زيارتي لماناوس، لكنه جزء صغير جداً. قابلتها مرة واحدة آبي، وبوجود محاميّ.. ولم أترك لها مجالاً للشك في أن رحلتها ذهبت سدى.. وبحسب علمي، استقلت الطائرة التالية لتعود إلى لندن».

هزّت آبي رأسها: «هذا مستحيل. أردتني أن أرحل بسببها وتعلم ذلك

جيداً، فلا تحاول مراعاة مشاعري أرجوك».

كرر ببطء: «أنا أردتك أن ترحلي؟ أي جنون هذا؟ ما الذي قلته يوماً.. أو فعلته، لأجعلك تظنين هذا؟ أنت كيريدا من تمنّى الرحيل دوماً، لتعودي إلى الرجل الذي ينتظرك في انكلترا، كيث.. ذاك».

صاحت بصوت حاد: «كيث؟ عمّ تتكلم؟».

ـ عن الرجل الذي تحبينه.. الرجل الذي أملت أن تتزوجيه يوماً.. حتى يوم.. دخلت حياتك.

لامس ڤاسكو خدها بخفة: «لا تنظري إليّ هكذا كارينا. لقد تعلمت حتى قبل زواجنا أن أعيش مع حقيقة أن قلبك ليس لي».

وهز رأسه مضيفاً: «وفي ماناوس، قالت لي ديلا إنه لا يزال ينتظرك ولا يزال يدعو الله لتعودي إليه وقالت إنه توسّل إليك في الرسالة التي أرسلها حتى تعودي إلى انكلترا».

وأسرت عيناه عينيها قبل أن يسألها: «هل يمكنك إنكار هذا؟».

قالت بقسوة: «أجل.. أستطيع أن أنكر. لم أكن أتوقع سماع أخبار كيث، ولم أكن أرغب في ذلك. كنت أقابله في لندن، أعترف، لكن ما من شيء جدي بيننا، ولا أستطيع أن أتصور سبب ظنك..».

وصمتت.. ثم قالت مترددة: «أم أنني أتصور؟ هل قالت.. ديلا.. شيئاً؟».

قال ببطء: «تلك الليلة حين رأتنا في شقتك.. قالت لي إنك واقعة في حب كيث بجنون.. لكن أحواله المادية صعبة. لهذا سعيت وراثي لأنني أستطيع أن أعطيك أكثر منه، مادا. وقالت إنني سرعان ما سأكتشف مدى دناءتك».

نظرت إليه مصدومة: «وصدقتها؟».

ـ وماذا كنت أعرف عنك؟ لم أكن أعرف سوى جمالك. ولم أستطع طرد فكرة أنك قبلت الزواج بي لمجرد الفضول.

أمسك ذقنها بيده، ينظر متفحصاً في عينيها: «قبل هذا، وفي منزل عمك، كنت تشعرين بشيء ما نحوي أليس كذلك؟».

هزت رأسها محمرة الوجه، واعترفت: «أكثر من شيء ما».

سأل بتجهم: «إلى أيّ حد؟».

فردّت متلعثمة: «أصبحت كل شيء في العالم بالنسبة لي، منذ رأيتك للمرة الأولى. لهذا تركت منزل عمي ووجدت لنفسي مكاناً خاصاً أعيش فيه.. لكن ديلا كانت تعرف.. لقد خمنت. وراحت تعذبني بهذا.. تعذبني لأنك لم تلاحظ حتى وجودي.. وهددتني بأن تقول لك، وظننت أنها فعلت تلك الليلة».

ابتلعت ريقها: «ظننت أن هذا هو سبب تفهمك لشروط زواجنا.. لأنك كنت تشفق عليّ..».

قال وفي صوته مرح مفاجيء: «أعتقد أنك بالغت في تقدير قدرتي على الإشفاق كيريدا.. لو كان لدي أدنى فكرة عن حبك لي، لحملتك إلى الفراش تلك الليلة، وكل ليلة.. لكن بدلاً من ذلك، أجبرت نفسي على الانتظار لأقنعك بأنك الزوجة التي أريدها، وأننا يمكن أن نكون سعيدين معاً».

هز رأسه: «لو عرفت كم عاندتِ لإبقائي بعيداً عنك، لكنت بائساً».

قالت آبي بصعوبة: «لكنك لم تكن تحبني. كنت تريد ديلا..».

ـ خيبة أملي مع ديلا حصلت قبل تلك الليلة.. إنها جميلة، وجعلتني أرغب فيها بشدة من دون أيّ مقابل. وحاولت إقناع نفسي بأن زواجي منها سيعوّض عليّ بطرق أخرى.. لكنني لم أقتنع. أما سلبيتها ومحاولة ابتزازها فدفعاني للتساؤل عما إذا كانت اتهاماتها لك صحيحة. وأنت تعرفين ما هي قادرة عليه، فأنت قريبتها.. وطيلة فترة خطوبتنا، انتظرت كما أعتقد، شيئاً ما.. خطأ ما ترتكبه، أو تصرّفاً سيئاً. لكن هذا لم يحدث.

صمت للحظات، ثم أكمل: «وأعتقد كذلك، أنني وقعت في الحب تدريجياً.. عرفت الحب الحقيقي، للمرة الأولى في حياتي، مع أنني كنت من الغباء بحيث لم أدرك ذلك. سيطر على تفكيري ذلك العهد الذي قطعناه وكيف أستطيع أن أنخطاه.. وبدا لي من المستحيل أن أغامر بسعادة حياتي بانتظار أن يظهر نوع من الانسجام الجسدي. وحين قال لي جورج إنك حامل، كدت أقبّله، لا بل لست واثقاً من أنني لم أفعل».

احتجّت: «لكنك تصرفت بشكل مريع».

فقال بنعومة: «بل أحسست بالغيرة.. عندما رأيتك مع لينك، كان يلامس يدك.. وهذا ما كنت بالكاد أسمح به لنفسي.. وأردت قتله. لم أشعر أبداً بمثل هذه الرغبة في القتل حين تركتني ديلا من أجل رجل آخر.. لكنني رحت أراقبك معه، وأرى بوضوح تام ما أشعره نحوك.. وكان اكتشافاً عظيماً. فيما بعد، بدا لي أنك لم تبتعدي يوماً عن صحبته.. وأردتك أكثر فأكثر، لأمحو من تفكيرك أيّ رجل آخر. وحين اعتقدت أنني نجحت، قلت لي إنك تشعرين بالخزي، فأحسست يومها أن حبي لن يكون كافياً لك.. وكنت مجروحاً بحيث لم أفكر سوى بالانتقام».

تنهدت: «وهذا ما فعلته.. وأردت الموت لحظتها».

ـ إن كان هذا يواسيك، فسأعترف أن هذا ما أردته أيضاً.. كنا قريبين جداً، وصلنا إلى فردوسنا، ثم فجأة ابتعدنا عن بعضنا البعض أكثر من ذي قبل. أخبار الطفل أعطتني أملاً جديداً. عندما ذهبت إلى ماناوس في المرّة الأولى، سعيت للحصول على قرض لشراء لاراكوكا، لأنني أعلم أن جيراليتو يريد الرحيل عنها.

وبلطف أرجع خصلة شعر عن وجهها.

ـ فكرت في أنك قد ترغبين في العيش هناك.. فوسائل الراحة التي يحتاجها الإنسان متوفرة في المنزل، وأملت أن يسترضيك هذا للبقاء معي، حتى وإن لم يكن هناك طفل.

اهتز صوت آبي: «لكن.. حين فقدت الطفل، قلت «لا تكره شيئاً، لعله خير لك»».

عقد حاجبيه وأجاب: «لكنني ظننت أن جورج شرح لك أنه من الممكن أن يكون الطفل مريضاً منذ البداية، وأن الإجهاض أحياناً وسيلة طبيعية لإصلاح.. خطأ».

تذكرت ببطء: «أجل.. لقد فعل.. لكنني لم أفهم.. وظننتك مسروراً، لأن هذا يعني أن ما من شيء يبقينا معاً بعد الآن».

اعترت جسمه القوي رجفة: «وهل ظننت هذا حقاً؟».

هز رأسه: «كان هذا أسوأ يوم في حياتي كيريدا.. كارثة أخرى. كل ما فكرت فيه وأنا أنتظر مجيء جورج، هو بياتريس.. وأنني قد أفقدك قبل أن أقول لك إنني أحبك».

وكأنما انقشع كل ضباب فجأة من أمام عيني آبي: «لكنني قلت لك في المزرعة، وقبل أن أغيب عن الوعي.. بدا لي أنه من غير المجدي الاستمرار في الادعاء وقلت لك «أحبك»».

ـ لاحظت أنك تحاولين قول شيء ما، لكنك لم تصدري صوتاً.

وأغمض ڤاسكو عينيه لحظة: «ديوس آبي.. يبدو أن القدر دفعنا إلى سوء التفاهم.. لكن على الأقل يمكننا الآن أن نفترق من دون اتهامات متبادلة».

ولو صفعها، لما صدمت أكثر.

وكررت كالبلهاء: «نفترق؟ ماذا تعني؟».

ـ ما قلته.. لك الحق في أن تذهبي.. ولا أستطيع أن أطلب منك البقاء.. لأنك كنت على حق، فحياتي هنا، رغم الصعاب.. عرضت عليك «ريو» كالقشة التي يتعلق بها الغريق، لكن حتى حين قلت هذا، كنت أعلم أنّ هذا الخيار كارثة لنا نحن الاثنين.

وخرجت كلماتها متعثرة بسرعة: «لكنني ظننتك تعرضها على ديلا..

أنا لم أرغب يوماً في العيش في ريو.. أبداً.. ولا تهمني المصاعب.. أريد البقاء معك هنا».

وبدأت تطبع قبلات صغيرة على وجهه: «تقول إنك تحبني، وتريد إبعادي!».

ودسّ يده في شعرها، ورفع وجهها ليستطيع تأمله، ثم قال بخشونة:

ـ لكن الرحيل فكرتك آبي، حين قالت لك لويزا إني خسرت الكثير من المال بسبب «لارغاتاو» أو «مكنسة الساحرة».. ولا أستطيع لومك كيريدا.. ولا أستطيع الآن تحمل كلفة شراء لاراكوكا.. وسيكون علينا أن نكافح.

سألت بقسوة: «هل تظن أنّ هذا يهمني؟ أنا زوجتك ڤاسكو. وأنا أحبك.. لن تبعدني عنك، ولم أكن أعرف أي شيء عن المال. ظننتك لا تزال تحب ديلا، وتريدها أن تحل مكاني.. ولم أستطع أن أتحمل».

ثم أضافت بشهقة باكية: «أوه.. يجب أن تصدقني!».

صمت ڤاسكو لحظات، ثم قال بنعومة: «إذن.. سنكافح معاً لإيقاف ريوتشو نيغرو على قدميها مجدداً.. هل هذا ما تريدين حقاً؟».

ـ أجل.. طبعاً.

وغمرتها سعادة لم تحلم بها يوماً. وأدركت فجأة مدى قوّتها وتأثيرها عليه، فنظرت إليه من تحت رموشها، ثم رفعت يديها إلى أزرار قميصه، وبدأت تفكّها، وهي تتمتم بصوت أجش: «لكن هذا ليس كل ما أريده».

ارتفع حاجباه، وكأنه حائر: «حقاً سنيورا؟ آسف لم أفهم قصدك.. ربما عليك أن تتكلمي بصراحة أكبر».

وانعكست السعادة على صوتها وهي تقول: «من دواعي سروري».

ثم سكتت فجأة: «ڤاسكو.. ماذا عن بيدرو لازارو.. لا بد أنه ينتظرني..».

ـ لا.. لا بدّ أنه رحل الآن.

وأمسك يديها وأعادهما إلى مهمتهما السابقة مضيفاً: «طلبت منه أن يغادر، إن لم تنضمي إليه خلال عشرين دقيقة، فمعنى هذا أنك باقية هنا».

وبّخته: «يا لهذه العجرفة!».

وصمتت لتمرر لسانها على شفتيها: «لا بد أنك كنت واثقاً مني».

فقال وهو يجذبها إلى الفراش: «لم أكن واثقاً أبداً.. وتعرفين هذا».

وقبّل عينيها، ثم أكمل: «وما زلت كارينا أنتظر حين تقنعيني».

فقالت بصوت أجش: «إذن، لا تنتظر أكثر حبيبي.. أرجوك».

كانت اللهفة التي تملكتهما معاً جارفة. وتجاوبت آبي مع عناقه، لتطفىء نار مشاعرها المستعرة. وتناغمت معه.. وكأنهما روح واحدة في جسدين. وحملتهما أحاسيسهما إلى عالم آخر، إلى دنيا السعادة والهناء.

وتنفس ڤاسكو الصعداء وهو يضمها بين ذراعيه قائلاً: «أنت لي أخيراً! لي إلى الأبد».

ونام.. وبقيت تراقبه مستلقية إلى جانبه مستمتعة بفرحها.

وفكرت بالفيغا الصغير وابتسمت، لقد حمل لها الحظ السعيد أخيراً وبطريقة غريبة فردوسية.. حتى «مكنسة الساحرة» ساهمت في هذا اللقاء السعيد.

لن تكون الحياة سهلة، لكنها لم تكن كذلك أبداً.. على الأقل، سيواجهان صعوباتها معاً.

وأخلدت إلى النوم مكتفيه آمنة بين ذراعي زوجها.

* * *